دراسات في الأدب والشعر

الحلم والدهشة

(دراسات أدبية)

الأستاذ الدكتور

حلمي محمد القاعود

الطبعة الأولى

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

810.9
ا . ح

القاعود، حلمي محمد .

الحلم والدهشة (دراسات أدبية)/ حلمي محمد القاعود.- ط1.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، دار الجديد للنشر والتوزيع.

138ص ؛ 17.5*25 (دراسات في الأدب والشعر)

تدمك : 8 – 770 -308 -977 -978

1. الأدب العربي – تاريخ ونقد.

أ. العنوان

رقم الإيداع : 14174

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركزي
هاتـف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201097564757-00201277554725
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر
هاتف : 24308278 (0) 002013
محمول 661623797 (0) 002013 & 772136377 (0) 002013
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

2021

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد بن عبد الله، وآله الطيبين، وأصحابه الأطهار، والتابعين بإحسان إلى بوم الدين:

وبعـــد،،

فهذه صفحات اجتهدت من خلالها أن أقدم قراءة أدبية "نقدية فى الغالب" لعدد من الأعمال الأدبية، شعراً ونثراً، ومصورة ، فى سياق موجز فرضته ظروف نشرها متفرقة، قبل أن يضمها كتاب.

حاولت أن أضع يدي على ما يمثل حلماً، وما يثير دهشةً، وما يشكل في النهاية رؤية تخص الشعور الإنساني، والبناء الحضاري، وتضع الأقدام على طريق مليء بالأمل والخضرة والنور.

سيجد القارئ العزيز بجانب القراءة فى الشعر والقصة والرواية والمسرحية والبحث والسيرة، إضافة جديدة، وهى قراءة بعض الأعمال الدرامية (المسلسلات) التي تعرضها الشاشة الصغيرة، حيث أضحت الدراما شئنا أم أبينا غذاء يومياً، تتغذى عليه الأسرة، بعد عناء يوم مجهد، فتجد فيها السلوى والمتعة، تعويضاً عن واقعها البائس التعيس. لقد صارت الدراما بديلاً عن الكتاب والقراءة لدى قطاعات عريضة من الشعب المسكين، بعد أن طحنتها الحياة بمشكلاتها وصعوباتها وعقباتها وزحامها.

فى هذه الصفحات أيضاً معالجة موجزة لبعض القضايا الجدلية مثل قصيدة النثر والحداثة، وتقديما لبعض الموهوبين الذين يضعون أقدامهم على أول الطريق

الأدبي، وإنصافاً لبعض المظلومين فى الحياة الأدبية، وتصحيحاً أو تصويباً لبعض الرؤى والأفكار.

آمل أن يكون فى سطور هذا الكتاب بعض الفائدة، وأسأل الله التوفيق والسداد.

حلمى محمد القاعود

أولاً : شعر وشعراء

- الولد والوالد.. وفرائد القصائد
- الجارم فى عيون الأدباء
- محمد ﷺ فى الشعر العربي الحديث
- شاعر المرايا والوجوه
- شاعر من المظاليم!
- فاروق جويدة.. وعطر الدم !
- "أغنيات الصبا والرماد"
- شاعر الحلم والسنبلات
- جيل من الموهوبين شعرا
- شاعر الخيول المجهدة
- قصيدة... فيديو كليب
- شمروخ الأراجوز !

الولد والوالد.. وفرائد القصائد

استغرقته الأكاديمية والغربة، فتوارت جهوده الأدبية والعلمية عن الأنظار،مع أنه بذل جهوداً كبيرة فى مجال تخصصه الدقيق (علم اللغة)، وله فى ميدان الأدب، شعراً ونثراً؛ إنتاج مهم، فهو ناقد واع، وشاعر كبير؛ ينشر بين الحين والحين قصيدة هنا وأخرى هناك، وإذا كان نشاطه الأدبي يضيء على مسرح الغربة بعيداً عن الوطن الأم، فإن نشاطه العلمي معروف على اتساع الجامعات العربية ولدى أهل التخصص فى علوم العربية. هذا هو "الولد" أو الدكتور "سعد مصلوح"، الذي برّ بأبيه وعمل على نشر إنتاجه الأدبي القيم المطمور فى زوايا النسيان والإهمال بعدما يقرب من قرن من الزمان، كان فيه الوالد "عبد العزيز مصلوح" يقدم إنتاجاً أدبياً راقيا، شعرا ونثراً وترجمة، ويشارك بشخصه مع قلمه فى الحركة الوطنية المصرية التي اشتعلت بعد الاحتلال البريطاني ؛ حتى وصلت إلى الذروة فى عام 1919 بزعامة "سعد زغلول"؛ مع أن "الوالد" كان يعيش فى إحدى قرى المنيا، فى أعماق الريف،ومع أنه لم ينل من التعليم إلا قدراً ضئيلاً، فقد علم نفسه بنفسه، حيث قرأ التراث الأدبي العربي في صوره المتألقة، حتى استوعبه، ثم عكف على الأدب الغربي فقرأ عيونه من خلال إتقانه للفرنسية والإنجليزية، ولم يكتف بذلك فقام بترجمة أجمل قصائد الشعراء الإنجليز والفرنسيين فى موسيقى عربية صحيحة ولغة مشرقة ؛ تحتفظ للنص الأصلي بمضمونه وطبيعته.. ثم خطا خطوة أخرى أبعد من السابقة حين نظم بالإنجليزية قصائد وطنية تعبر عن رفض الاحتلال الإنجليزي، وتبشر بالمقاومة المستمرة حتى التحرير، نشرها فى صحيفة إقليمية،ثم أرسلها إلى المندوب السامي البريطاني، وكانت وطنيته فى كل الأحوال سبباً فى اعتقاله ومطاردته قبل ثورة 1919 وبعدها.

الشاعر الأديب "عبد العزيز مصلوح" ممن أهملتهم الحياة الأدبية، مثلما أهملت ولده الأول فيما يبدو لي بسبب بعده عن العاصمة وحياته فى أعماق الريف،

والآخر لغربته الطويلة فى جامعات عربية تعددت وتباينت، ثـم زهـده فى التهافـت على الشهرة وأضوائها، مع ترفع عن الانغماس فى العلاقات العامة التي يتقنها بعض المتسلقين ومحدودو الموهبة الذين يلحون على وسائط الإعلام،ويعملـون مـن أجـل التلميع بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

لقد نشر الأديب الكبير "وديع فلسطين" فى الهلال (عـدد سـبتمبر 2003) أسماء عدد كبير من الأدباء والمؤلفين والشعراء والصحفيين المهمين، الذين تجاهلتهم الحياة الأدبية والدراسات الأكاديمية، ولم يكن من بيـنهم "عبـد العزيـز مصـلوح" الذي كان معروفاً على نطـاق واسـع فى زمنـه، وخاصـة أيـام الثـورة الوطنيـة عـام 1919. وقد أشار الأستاذ "وديع" إلى أن ما ذكره يمثل مجرد عينة من الأسماء التـي وردت على ذهنه لحظة كتابة موضوعه، وبالتأكيد فهناك العشرـات بـل المئـات مـن أدباء القرن العشرين الذين يستحقون الدراسة، والبحـث والتنقيـب عـن إنتـاجهم الأدبي والفكـري وتقـديمهم مـع إنتـاجهم إلى الأجيـال الجديـدة. والمفارقـة التـي يلاحظها من له علاقة بواقع الدراسات الأدبيـة اليـوم عـلى مسـتوى الجامعـات أو الحياة الثقافية، أن هناك إلحاحاً معيناً على أسماء بعينها يثير العجب، ويؤكد على خلل سائد ينبغي إصلاحه، حتى يعود التوازن والتنوع إلى الواقع الأدبي.

خطوة "سعد مصلوح" من أجل والده تمثلت فى نشر شعره المـترجم،وأقـول "شعره المترجم" لأنه لم يقم بترجمة القصائد الأجنبية ترجمة عادية تقتصر على المعـاني وحسب، بل إنه صاغها شعراً عربياً أصيلاً، فيه جهد أو إبداع يكاد يفـوق مـا بذلـه أصحاب القصائد الأصليون. إن ديوان "فرائد القصائد من ديوان الشعر الغـربي" الذي ترجمه عبد العزيز مصلوح ونشره ولده سعد عبد العزيز مصلوح، هو الخطـوة الأولى فى نشر إنتاج شاعر كبير،عدنا ولده بنشره بقية إنتاجه تباعـاً بعـد جمعـه مـن بطون الصفحات المطوية فى جرائد سيارة أو مجلات أدبية أو مخطوطـات شخصـية، وكنت أتمنى أن يفرغ لهذه المهمة طالب من طلاب الدراسات العليا فى أقسام اللغـة

العربية، وخاصة فى المنيا التي تضم كليتي؛ الآداب ودار العلوم، وللابن فيهما أثر وتاريخ، حيث كان أستاذاً لفترة غير قصيرة.

بيد أن نشر ديوان الفرائد الذي يضم قصائد لتينسون وتوماس هود ولافونتين وفيكتور هوجو وشكسبير وجون سكلنج ولورد بيرون وجيرالد جولد وغيرهم؛ كشف لنا عن ظاهرتين مهمتين، الأولى تمثلت فى مقدمة "سعد مصلوح" لديوان والده، حيث قدمت أديباً صاحب أسلوب من طراز فريد ينضوي تحت لواء مدرسة البيان التي كان أعلامها المنفلوطي والرافعي والزيات والبشرى وصادق عنبر وغيرهم، مع الفارق الذي يصنعه الزمان والثقافة، فهو يذكرنا بمحمود محمد شاكر ولغته النقية الدقيقة المصفاة المهيمنة على المعجم العربي لدرجة استخدام ألفاظ مهجورة، يبعث فيها الحياة والحركة. والأخرى تمثلت فى تقديم "عبد العزيز مصلوح" لما يمكن أن نسميه عريضة احتجاج خطيرة إلى الملك أحمد فؤاد بسبب ما أصاب الفلاحين من ظلم وقهر على يد الأغنياء والأثرياء. إن العريضة كانت خطاباً مفتوحاً تصدر ديوان الشاعر الذي ظهر عام 1924، رأى فيه الشاعر أن هذه القضية – قضية الفلاحين– هي قضية الوطن بأسره وأن معالجتها بما ينصف الفلاحين هو إنصاف للوطن ذاته، ولعله كان أول من طالب الملك بالاقتداء باليابان فى العناية بالفلاحين حيث ارتفعت من حضيض الجهالة والهمجية، إلى مستوى الحضارة والمدنية.

ومن المؤكد أن هذا الخطاب المفتوح الطويل يحتاج إلى دراسة مستفيضة تكشف عن عبقرية هذا الأديب الشاعر وشجاعته وأسلوبه الجميل وخلقه الرفيع.

لقد ولد عبد العزيز مصلوح مع مطلع القرن العشرين، وتوفى قبل نهايته بستة عشر عاماً، وكانت حياته حافلة بالعطاء والكفاح وإن غلفها بصمت المخلصين الزاهدين... ويكفيه أنه قدم لنا ولده العالم الشاعر الأديب.

الجارم في عيون الأدباء

على الجارم (1881-1949م) من كبار الشعراء والأدباء فى العصر الحديث، وكان محور الحركة الأدبية على مدى عقود فى أوائل القرن العشرين، وهو من أبناء مدينة رشيد محافظة البحيرة ذات التاريخ العريق العظيم أحببته منذ صباي دون أعرف من هو؟ وذلك من خلال رواياته التاريخية التي كانت مقررة على طلاب المدارس المصرية فى المرحلتين الإعدادية والثانوية، فقد جعلنا أنا وجيلي وأجيال من قبلي ومن بعدى- نعيش فى بغداد وقرطبة والقاهرة ورشيد وحلب، رأينا تاريخ أمتنا فى حالات صعوده وحالات تقهقره، كما رأينا أبطالاً كنا نسمع عنهم ولا نعرف شيئاً عن حيواتهم ومصائرهم، مثل المتنبي، أبى فراس، ابن زيدون، ولادة، .. وفى مرحلة أخرى من العمر عدت إلى كتبه شعراً ونثراً، أقرأ وأدرس وأتعلم، فوجدت مثالاً لإخلاص العلماء وجديتهم وصدقهم مع أنفسهم ومع عقيدتهم.

وقد عدت إليه قبل أسابيع حين رأيت كتاباً ضخماً جميلاً أنيقاً مجلداً يضم ما كتبه الأدباء والباحثون حول الرجل وجهوده اللغوية والأدبية والشعرية، أعده نجله الطبيب الشهير الدكتور "أحمد على الجارم"، فحمدت للابن بره بوالده، وهى خلة تبدو نادرة فى هذا الزمان، حيث يهمل كثير من الورثة تراث آبائهم الأدباء والشعراء والمفكرين، انطلاقاً من لغة العصر التي ترى في الكلمة وتراثها، بضاعة أو كائناً لا أهمية له، ولا يعود على أصحابه بفائدة مادية،والفائدة المادية هي مقياس الربح والخسارة فى عصرنا العجيب، ولكن الابن "أحمد الجارم" حرص على تراث والده، فنشره، وتتبع ما يقال عنه،وحاول ونجح فى التعريف به من خلال المؤتمرات والندوات ودور العلم، وكان الحصاد كبيراً وعظيماً، فقد انعقد حول الرجل أكثر من مؤتمر،ودارت حوله أكثر من ندوة، واحتفت به محافل عديدة، ثم قامت الجامعات المختلفة بدراسة الرجل وتراثه، فنوقشت حول الجارم وأدبه

وشعره وجهوده اللغوية إحدى عشرة رسالة (ماجستير ودكتوراه)، ثم رأى الناس مجموعة من الكتب (تقرب من عشرة) ألفها أساتذة فضلاء، فضلاً عن المقالات والدراسات التي ضمتها كتب أخرى، وجمع بعضها الدكتور "أحمد الجارم" فى هذا السفر الضخم الذي حمل عنوان "الجارم فى عيون الأدباء".

وقد انطلق الجارم الابن من نقطة حساسة ومؤثرة، وهى تجاهل الجارم الأب فى بعض الفترات لأسباب سياسية، والتعتيم على إنتاجه الأدبي والشعري، ورفض الاحتفال به بعد سنوات من رحيله فى الصحف والمجلات الأدبية، ثم تلك الحملات التي تصنعها الغيرة أحياناً أو التوجه الفكري لأصحابها، فتتعامل مع الرجل وإنتاجه الثقافي بشيء من التحيز وعدم الموضوعية والرغبة فى الهدم. ولذا كان حرصه على الاهتمام بتراث والده وما يكتب عنه قضية أساسية من قضاياه الخاصة، وإني إذ أحمد له ذلك، إلا إني أعتب عليه حساسيته المفرطة تجاه ما يبدو نقدا سلبياً إزاء الجارم الأب، وحرصه الشديد على الرد على كل ما يقال ضد أدب والده وشعره، فالأدب ملك للناس، يقولون فيه ما يشاءون، ولو شغل الإنسان نفسه بكل ما يقال عنه أو حوله لاستغرق ذلك أعماراً وسنوات طوالاً، ومع أن "المتنبي" بدا نرجسياً ومتعالياً فى بيته الذي يقول :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

إلا إنه أصاب كبد الحقيقة عندما أبعد نفسه عن الانشغال باختصام الناس تأييداً له أو رفضاً، وانصرف إلى ما هو أهم، وهو الإنتاج الأدبي، فهذا هو الذي يبقى ويعيش وتتعامل معه الأجيال بالرضا والقبول أو الرفض والحنق، وأعتقد أن الأجيال التي تعلمت في المدارس، عرفت الجارم شاعرً وروائياً ومعلماً؛ قد أعطته حقه بالحب والامتنان.

لقد ساءلت نفسي: هل تكون الحساسية المفرطة لدى الـدكتور أحمـد الجـارم كانت من وراء إهماله لدراستي حول القصة التاريخية فى أدب والده، فلـم يـدرجها ضمن كتابه؟ أم إنه النسيان أم ظروف أخرى؟

على كل، فقد أكبرت فى الجارم الابن حفاوته البالغة بوالده، ومتابعة ما يدور حوله، وهو فى تخصص بعيد عـن تخصـص والـده، ويشـغل أصـحابه أحيانـاً عـن الواجبات الاجتماعية، ورأيت فيما كتبه عنه تعبيراً صادقاً عن علاقة حميمة تربط ابنـاً صالحاً- ولا نزكى على الله أحداً- بوالد عظيم خدم دينه وأمتـه وشـعبه بـإخلاص وتفان، وهو ما عبر عنه الدكتور الطاهر أحمد مكي في كلمته أمام احتفال مجمع اللغة العربية (9/ 2/ 1997) قائلا:

"فى نثره كما فى شعره، كان يحكم الجارم فى إبداعه مـذهب نقـدي يـؤمن بـه، وهو أن للفن غاية خلقية، وهو اتجاه كان يصطدم بقوة مع، مـذاهب أخـرى بـدأت تعرفها الحياة الأدبية العربية، وافدة إلينا من وراء البحـار: مـذهب "الفـن للفـن"، ينكر أن يعنى الأدباء بالنواحي الاجتماعية والسياسية. أو أن يوظف الشعر لتمجيـد البطولات والمعتقدات، لأن الأدب الإبداعي شعراً أو نثـراً، لا ينبـه بالموضـوعات الأخلاقية ولا يشرف بالمواعظ والحكم، وإنما غايته الجمال فحسـب، وفى مواجهتـه مذهب آخر، حط رحاله فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية مع بعض العائدين من فرنسا بالذات، وهى "الواقعية الاشتراكية" يتجاوز دعاتها مبدأ تصوير الواقع الذي تعرفه الواقعية النقدية منذ القرن الماضي ويرون الفـن سـلاحاً فى معركـة الصـــراع الطبقي. ومن الواضح أن الجارم رفض تطبيق المـذهبين، يـؤمن بـأن للفـن رسـالة جمالية، ولكن الغاية الخلقيـة قمـة هـذا الجـمال، ويـراه سـلاحاً مـن أجـل التحـرر والاستقلال وعدم التبعية، ولكنه يرفض أن يقيده بمصلحة طبقة دون غيرها...".

رحم الله الجارم الأب، وشكر الله للجارم الابن، وألهم أمتنا الأمل والعمل.

محمد ﷺ فى الشعر العربي الحديث

هذا هو عنوان كتابي الضخم (أكثر من ستمائة صفحة) الـذي صـدر عـن دار الوفاء بالمنصورة فى عام 1987، وأعيد طبعه مرة أخرى في الريـاض (دار النشـر الدولي ، 1430هـ = 2009م) أي إن الطبعة الأولى قبل عشرين عاماً تقريبـاً، وقـد رأيت العنوان نفسه يتصدر مجلـة الأدب الإسـلامي (العـدد 37) ليتضـمن مقـالاً لصديقي القديم الأديب الشاعر "حكمت صالح" من العراق الشقيق.

في البداية تصورت أن المقال يعرض لكتابي أو يتناوله بالنقد والتقويم،شملني شعور بالغبطة لأن صديقاً كريماً يتناول أحد كتبـي في صـفحات طـوال مـن مجلتنـا الغراء، ولكن صدمتي كانت كبيرة، حين رأيت المقال يخلو من أية إشـارة إلى كتـابي الذي تناولته الصحف والدوريات الأدبية على امتداد العالم العربي، مذ كـان رسـالة دكتوراه مخطوطـة حتـى تـم طبعـه في كتـاب يـوزع عـلى النـاس، ومـن الصـحف والمجلات التي تناولته: الأهـرام،الأخبـار،الجمهوريـة، المسـاء، أكتـوبر، المشـكاة، الأدب الإسلامي،المجتمع، المدينة المنورة، النـدوة، الجزيـرة، الـدعوة، الاعتصـام، وغيرها.

ومع ذلك فإني ألتمس العذر لأخي "حكمت صالح"، بسبب الظروف التي مر بها العراق في السنوات الماضية، وجعلت من الاتصـال والتواصـل مـع الأدبـاء العراقيين أمراً غير منتظم، وأقصد بالأدبـاء العـراقيين الـذين ظلـوا في بلادهـم ولم يغادروها. ولعل ذلك كان من وراء عدم اطلاعه على كتابي،وتكراره لبعض ما ورد فيه حول كتاب "فاروق خورشيد، وأحمد كمال زكى" الذي تناولته ضمن مجموعـة أخرى من الكتب النثرية التي اهتمـت بشخصـية النبـي الكـريم ﷺ ونظـرت إلى شخصيته من جوانب مختلفة في أطر مختلفة.

لا أزعم بالطبع أننا (حكمت وأنا) قلنا كلاماً واحداً حول كتاب فاروق خورشيد وأحمد كمال زكى، ولكن أزعم أن المضمون متقارب أو غير متباعد، مع تميز كل مضمون عن الآخر. وإن كنت في كل الأحوال قد أوضحت التصور الذي ينطلق منه الذين كتبوا نثراً أو شعراً عن محمد ﷺ فهناك من تعاملوا مع النبي الكريم من منظور قومي، وهناك من رأوا فيه ظاهرة إنسانية مبتورة عن الوحي،هناك من أعجبوا به بوصفه رمزاً للبطولة والقيادة المؤثرة... وهناك غيرهم،بالإضافة إلى الأغلبية التي رأت فيه النبي الإنسان الذي أوحى إليه، وهى الرؤية الصائبة، حيث إن أصحاب الرؤى الأخرى لم تكن تعنيهم قضية الوحي أساساً، لأنها تلزمهم الإيمان به نبياً رسولاً.

لقد دار الكتاب في معظمه حول القضايا الفنية التي أنتجها الشعر الذي نظمه الشعراء العرب حول النبي ﷺ وكان هناك نوعان من هذا الشعر،شعر يدافع عنه ﷺ وشعر يدافع به، واتبع الشعراء طرقاً شتى في التعبير عن الشخصية المحمدية، فمن الطريقة المباشرة، أي النظم المباشر الذي يرصد السيرة النبوية وأحداثها، إلى الشعر الذي قاله الصوفية وعبروا فيه عن نظرية "النور المحمدي" ومرادفاته، إلى شعراء الشيعة الذين رأوا فيه الجوانب التي ترفد مذهبهم بالعديد من القيم، إلى شعراء التجديد المعاصرين الذين اتخذوا في الأغلب من شعر التفعيلة وعاء لرؤيتهم، حيث تحول النبي ﷺ إلى رمز للنصر والفتح ومواجهة الظلم والاستبداد.. ومن خلال البناء الدرامي أو الحواري أو القصصي بصفة عامة رأينا إضافة جديدة إلى الشعر الذي دار حول الشخصية المحمدية.

لقد كان على أن أتعرض للمحاولات الفنية التي هدفت إلى إبراز صورة الشخصية المحمدية من خلال المطولات والملاحم والقصيد السمفونى، وهى محاولات حققت في معظمها نجاحاً فنياً ملحوظاً، أثرى الديوان الشعري الذي دار حول رسولنا الكريم ﷺ وبالطبع لم أغفل الموقف المعادى الذي اتخذه الشعراء

اليساريون أو لحداثيون كما تسميهم بعض البلاد العربية من الشخصية المحمدية، حيث تجاهلوها، وتجاهلوا معطياتها، أو حاولوا غمزها من خلال بعض الإشارات العدائية في بعض إنتاجهم، هذا الموقف المعادى، جاء في مقابله موقف آخر أكثر إنصافاً لرسول الإسلام ونبيه ﷺ وهو موقف معظم الشعراء العرب النصارى،الذين أشادوا بالنبي وأخلاقه وقيمه ومواقفه في إطار التصور الذي نظروا به إليه، وقد لفت هذا الموقف اهتمام من طالعوا الكتاب واستوعبوه.

لقد استطردت في الحديث عن الكتاب الذي اتخذ من عنوانه حكمت صالح عنواناً لمقالته، وبدا الأمر، كأن أحداً لم يتطرق إلى الموضوع من قبله، في أنني بعد الجهد الذي بذلته في الكتاب ألحقت به قائمة أولية تضم مئات القصائد المفردة التي نظمها الشعراء حول محمد ﷺ وكانت قاعدة الانطلاق في الدراسة الفنية النقدية، ومع ذلك فوجئت بعدم الإشارة إلى كتابي، ولو من باب التنويه!

فى عدد سابق من "الأدب الإسلامي" الغراء؛ نشر أحد الكتاب قائمة (ببيلوجرافيا) بالرسائل الجامعية التي دارت فى مجال الأدب الإسلامي، وأهمل الإشارة أيضا إلى كتابي، مع أنه رسالة جامعية موجودة فى سجلات كلية دار العلوم ومكتبتها ومكتبة جامعة القاهرة المركزية. ولم يلتفت الباحث إلى ما دونه الدكتور "عبد الباسط بدر" من معلومات فى كتابه الذي ضم قائمة طويلة حول الأعمال الأدبية الإسلامية فى شتى الفروع، وهو ما يجعلني مضطراً إلى الإشارة إلى العديد من الكتب والدراسات والمقالات التي كتبتها، فضلاً عن رواية ومجموعتين قصصيتين دارت فى إطار التصور الإسلامي، ولعلى أول من أصدر أكثر من كتاب عن الرواية الإسلامية المعاصرة، وكتاباً عن الواقعية الإسلامية فى روايات نجيب الكيلانى، وكتابا عن القصائد الإسلامية الطوال فى العصر الحديث، غير الكتب المتوقع نشرها إذا شاء الله تعالى وأعان.

ولعلى بما كتبت لا أنتصف لنفسي، بقدر ما أسجل حقيقة تهم الباحثين والكتاب والشعراء فى مجال الأدب الإسلامي، وأستعيد زمان الوصل مع الصديق "حكمت صالح" الذي عرفني به أخي الحبيب عماد الدين خليل، حفظه الله ورعاه.

شاعر المرايا والوجوه

أصدر العديد من المجموعات الشعرية، وشارك في الحياة الأدبية، داخل مصر وخارجها، مشاركة فعالة، ومع ذلك بدا حظه من الدراسة الأدبية والتناول النقدي محدوداً، مع أنه يعد من جيل المجددين فى شكل القصيدة وبنائها، وهو الجيل الذي بدأ مسيرته في مصر أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وكان من أبرز شعرائه: صلاح عبد الصبور، كامل أيوب، مجاهد عبد المنعم مجاهد، عبده بدوى، كمال نشأت، وغيرهم.

ومع أن تفسير الحظوظ الأدبية والنقدية يبدو محصوراً في القدرة على الانتماء إلى جماعة أو فريق من الناشطين في الحياة الثقافية، أو القدرة على إنشاء العلاقات العامة مع أجهزة الدعاية والنشر، فإن الشاعر "عبد المنعم عواد يوسف"من مواليد 1933 حظي مؤخراً بدراسة أكاديمية (رسالة ماجستير) قام بها باحث في إحدى الجامعات، فضلاً عن بعض الدراسات القصيرة والمقالات السريعة؛ ويبقى شعره في كل الأحوال مجالاً خصباً لشعر جيد يحتاج إلى مزيد من التناول والدرس.

وقد صدر "المجلد الثاني" من شعره، مؤخراً، يضم ستة دواوين أو ست مجموعات شعرية، هي: " المرايا والوجوه، عناق الشمس، الشيخ نصرالدين والحب والسلام، للحب أغنى، الضياع في المدن المزدحمة، عندما نادتني عيناك (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001)، ويقع المجلد في نحو ستمائة صفحة من القطع الصغير.

ويمكن القول إن التجربة الشعرية لدى "عبد المنعم عواد يوسف" ترفدها ثلاث عناصر أساسية هي؛ الإحساس بالانتماء الريفي مع تجليات هذا الإحساس في التعاطف مع الفقراء والمستضعفين، ثم الشعور بالتعاطف الغلاب مع القيم الإنسانية العالمية التي تؤكد الرغبة في السلام والموادعة والحرية، وأخيراً الارتكاز على التصورات الإسلامية في معالجة قضايا الوجود والموت على المستويات

الشخصية والقومية والعالمية. طبيعة قصائده، بل عناوينها، ومعجمها تشـي بهـذه الروافد ومعطياتها. وقد ألمح إلى ذلك الشاعر الراحل "صالح جودت" حين قدم بعض مجموعات "عبد المنعم عواد" وأشار إلى موقف "العقاد" من ترشيح إحدى قصائده للفوز على أساس مضمونها الإنساني.

ولعل هذا المضمون الإنساني هو الذي ارتقى بواقعية شاعرنا من مستواها المادي المخلوط بعناصر القبح والشر، إلى مستوى آخر يحمل شرف النضال وعزة الكفاح للسمو فوق القبح والشر جميعاً، ولعلنا لو تأملنا قصيدته "هجائيات" التي يرصد فيها أحوال الواقع العربي المتردي، ويكشف ما آلت إليه أوضاع الخلافات والثقافات بين أمة يفترض أن تتوحد وتتكاتف لترد المتربصين والأعداء، أقول لو تأملنا هذه القصيدة لرأيناه من داخل غضبه النبيل يقول بطريقة غير مباشرة، كفوا يا عرب، وتخلوا عن واقعكم القبيح الشرير، وارتقوا إلى مستوى المسئولية: (أتقتلون بعضكم بلا سبب/ وتنتقون للهيب أجود الحطب/ وكلكم يظن نفسه محمداً../ وكلكم أبو لهب، وتدعون أنكم عرب/ إن كان من أراهمو أمام ناظري عرب../ فقد كفرت بالعرب/ دم الشهيد لم يزل/ على الدروب يصطخب/ منقباً عن السبب/ يقول في غضب/ من أجل ماذا تهدر الدماء أيها العرب؟!/ يأيها الذين تدعون أنكم عرب).

يمكننا أن نسمى واقعية عبد المنعم عواد بالواقعية المثالية، وهى التي ترى في مفردات الواقع اليومي والاجتماعي مرتكزاً لها، ولكنها تسعى بالحب والسلام؛ إلى الارتقاء به والسمو فوقه، وتدشين عالم جديد يمتلئ فرحاً وبهجة وأملاً في الغد والمستقبل. إن الشاعر لا يتنكر للواقع البائس، ولا ينكر ما فيه من خلل وأذى وحزن، ولا يدعى أن كل ذلك لا يؤثر فيه أو يحطم معنوياته، ولكنه يغضب ويثور، ويأسى ويحزن، ثم ينتظر انقشاع الضباب وإطلالة الصحو، وشروق البدر:

(يوما ما../ سينقشع الضباب/ يطل وجه الصحو/ يشرق في ظلام الليل بدر/ ينشر الأفراح والبشر/ فلا تتعجلوا الأقدار، كل في مواسمه).

يستفيد الشاعر في نقل تجربته الشعرية بعناصر عديدة، منها : الحكى أوالسرد- كما يسميه صديقي الدكتور حسين على محمد والبناء القصصي للقصيدة ينقلها من الرتابة الغنائية أو المباشرة التقريرية إلى عمق الفن الحكائى بما فيه من أحداث ووقائع تتوالى، تقوم على التشويق والإثارة وانتظار النهاية أو لحظة التنوير التي يجد عند القارئ متعة الوصول إلى ذروة الجمال الفني، وهو ما نراه في معظم قصائد "عبد المنعم عواد يوسف".

وتبدو مجموعة "الشيخ نصر الدين والحب والسلام" مجموعة قصصية في مجملها، والقصيدة/ القصة بصفة عامة، في فقراتها أو مقاطعها، تقدم لنا فضاء سردياً يشتمل على أحداث وأشخاص وحوار وعقدة وذروة، وتأمل قصائد: لقاء في فصل لم يولد بعد، طواف في كتاب الشيخ نصر الدين عوداً إلى كتاب الشيخ نصر الدين، اللقاء الثالث مع الشيخ نصر الدين، من خماسيات الشيخ نصر الدين.. إنها قصص شعرية جميلة، تخرج بالكلمة الشاعرة إلى سياق درامي أكثر تأثيراً وفعالية.

ثمة ظاهرة في البناء الشعري عند "عبد المنعم عواد يوسف"، تعتمد على المزاوجة بين الشعر العمودي وهو متفوق في نظمه والشعر الحر، والظاهرة تعطينا دلالة على قدرة الشاعر على الصياغة الفنية والاهتمام بالبناء الشعري بصفة عامة، كما في قصيدته متون وهوامش: وسنقرأ المتن التالي وهامشه لنرى بعض ملامح صياغته الجديدة مقارنة بالصياغة التقليدية الموروثة:

بدون جناح كيف للطائر الذي ... أعار جناحيه الرياح سيرتقى
فكوني جناحي يا طيور فأغتدي ... إلى فوق ما يرقى مدار المحلق

الهامش : (نسر الأمس الهاجع في ذاكرة النسر/ الآن توهم أن بلوغ مـدى مـا أيسر/ ما كان يحققه بالأمس، من الإمكان/ لما حاول، داهمه العجز/ فأقسـم/ مـن هذا اليوم: بألا يحلم يومـاً بـالطيران)، ومـع أن الهـامش يبـدو أقـرب إلى الإحبـاط والعجز والتشاؤم، فإن مطابقة المتن والهـامش، تعطـى بصيصـاً مـن الأمـل في كـل الأحوال.

إن شعر "عبد المنعم عواد يوسف" صورة إنسانية لواقـع يسـعى الشـاعر إلى تغييره نحو الأفضل بالفن والإنسانية معا، وهو يحتاج إلى الدرس والنقـد مـن أكثـر من زاوية، وأكثر من رؤية.

*** ***

شاعر من المظاليم!

هذا شاعر من المظاليم، ظلم بسبب وجوده بعيداً عن أضواء العاصمة، وظلم بسبب انتمائه إلى الدائرة الإسلامية الأصيلة التي يكرهها أنصار التغريب والثقافة الفاسدة، وظلم بسبب تأخره في نشر إنتاجه الأدبي- نثراً وشعراً إلى مرحلة سنية متأخرة، فقد نشر ديوانه الأول عقب إحالته إلى التقاعد بسنوات!

الشاعر الأديب "عزت عبد الله" له إنتاج أدبي جيد، فهو يكتب المقالات الأدبية المحكمة، دفاعاً عن قيم الأمة ومعتقداتها وأخلاقها، ولا يألو جهداً في تناول الظواهر الاجتماعية المختلفة بالنقد والتحليل والتقويم، وتحمل أفكاره الصحف المحلية التي شارك في تحريرها والكتابة على صفحاتها في محافظات الدلتا، دمياط والغربية والشرقية، وامتد إنتاجه الأدبي إلى الصحف والمجلات الأدبية القاهرية، ولكن تبقى قدرته الشعرية أكثر حضوراً وسطوعاً، والرجل له أكثر من ديوان تحت النشر مثل "الرحلة" و"الشيطان يحكم" ، إضافة إلى ديوانه المنشور"القدس هانت" الذي نشره على نفقته عام2000. ولا أدرى لماذا لا يهتم به النشر المحلى الذي تقوم به قصور الثقافة ومديرياتها، فهي أحياناً تلجأ كي تستنفد ميزانيتها إلى نماذج رديئة فناً ومضموناً وتقدمها إلى الناس مليئة بأخطاء النحو والصرف والعروض، فضلاً عن التشوه الفكري والانحراف الفطري!

شاعرنا يملك القدرة على النظم عمودياً وتفعيلياً، ويملك من أدوات التعبير الشعري، ما يمكنه من تقديم قصائد ناجحة، وإن كانت تطغى عليها المباشرة في بعض الأحيان، ولكنها تواجه أحداث الواقع وتعبر عنها بصورة ناضجة، وتتغيّا إنهاض المجتمع وحفز همته لمواجهة الكوارث التي تترى على الأمة ولا تترك لها فرصة التقاط الأنفاس.

ولعل دلالة العنوان الذي يحمله الديوان "القدس هانت"، تشير إلى ما يعتمل في صدر الشاعر من آلام تجاه ما يجرى ويدفعه إلى تقرير هوان القدس على أهلها،

كي يستفزهم للاهتمام بأمرها والإعداد لإنقاذها من يد الغزاة الهمج الذين يساعدهم مستعمرون همج. ولو توقفنا أمام القصيدة التي تحمل عنوان الديوان أو يحمل الديوان عنوانها، لرأيناه يمضي في تقرير حقائق الواقع الذي نراه أو نشاهده على الأرض يومياً، فالقدس التي هي أرض الله والمسجد الأقصى، مصلى الأنبياء والقبلة الأولى كلها هانت ولوثت بالرجس وتئن تحت نير الظلم، بل إن الكعبة العصماء تلبس الحداد على أختها (القبلة الأولى)، والمسلمون يلهون ويطربون بينما الواقع يفرض المروءة والبسالة والغضب، وليس الكلام أو الخطب. القصيدة طويلة، وقد نظمها الشاعر على نمط التفعيلة مع الاحتفاظ بقافية متنوعة قوية جهيرة (الباء والذال والميم والقاف..)، ومن خلالها يستعرض الواقع المعيش، ويلح ويكرر في العرض وكأن القوم لا يسمعون ولا يبصرون، فهو يريد تحريك حواسهم حتى ينهضوا بهم في حماية أنفسهم وكرامتهم واستقلالهم:

(يا قومنا هبوا/ فلن تحمى حرائرنا القصور/ لن تغسل الأوراق../ آبار الروائح والعطور/ لن يقهر الأعداء../ إحراق العزائم بالبخور/ لن يصرف الأعداء../ إطلاق الفوارس الصقور/ ماردّهم صيد الأيائل../ والزواحف والطيور/ لن يرجعوا / إلا بسيف .. / يجتاز الصدور).

وإذا كانت القدس مركز اهتمام الشاعر أو بؤرته، فإن القضايا العربية والإسلامية الكبرى باهتمام مماثل، ويعبر عنها الشاعر فى صور متعددة. لنأخذ مثلاً مأساة "صبرا وشاتيلا" شغلت العالم منذ سنوات عديدة حين قام الإرهابي "شارونً" بالإعداد لذبح المئات من الآمنين، ويعبر الشاعر عنها واصفاً طبيعة العدو، وواجب العربي المظلوم في مواجهة هذه الطبيعة:

**صهيون عربيد في أرضى		فأحل من الحرمة لمرضى**
**لكنى لن أهدأ أبداً		حتى أتحرر أو أمضى**
**أمضى والغاريكللني		أو أقبر صهيون بأرضي**

وظل الشاعر يتحدث عن الجريمة البشعة التي ارتكبتها قوات العدو في المخيم الفلسطيني "صبرا وشاتيلا"، ويركز على ضرورة المقاومة حتى يزول العدوان ويحل السلام ويملأ النور الآفاق .

وللشاعر "مدحيات" عديدة يقولها في أشخاص أحبهم أو أماكن يقدرها عن عاطفة صادقة ومشاعر حارة، فيزجى التحايا تعبيراً عن تقديره أو تأثره، ستجد مثلاً قصيدة حول الإمام أو المهندس الراحل إبراهيم شكري، السياسي المعروف، أو مدينة بورسعيد الباسلة أو الملك عبد العزيز أو العالم "أحمد زويل" أو غيرهم من الشخصيات العامة والأماكن المؤثرة، تكاد تكون نادرة في شعرنا المعاصر بسبب ما قيل عن فن المديح والتكسب به، ولكنه لدى شاعرنا انفعال حقيقي وترجمة صادقة عن واجب يستحقه الممدوح.

وهناك انعطافة نحيى الشاعر عليها، وهى التعبير عن المناسبات الإسلامية برؤيا معاصرة، حيث ينأى كثير من الشعراء المعاصرين عن الإشارة إلى هذه المناسبات أو تناولها تحت زعم أنها تدخلهم في دائرة شعر المناسبات، وأن الحديث عن المناسبات الإسلامية الخاصة، أمر غير محبوب في زمن صار فيه الانسلاخ عن قيم الإسلام، من الأمور الشائعة لدى العديد من التيارات الأدبية والفكرية. إن إصرار الشاعر على الانتماء إلى الدائرة الإسلامية في هذه الأيام يعد من المواقف الشجاعة الجادة التي تحسب له، خاصة في حركته الشعرية من خلال ديوانيه المخطوطين اللتين تطورت فيهما أدواته الفنية، حيث تبدو أكثر استيعاباً لمفاهيم الدراما الشعرية المعتمدة على الحوار والقصة مثلا (قصيدة الشيطان يحكم).

فهذه عجالة عن شاعر جيد يستحق أن نقف أمامه وقفة أطول تكشف أبعاد مكنوناته، ومثله يستحق أن نحتفي به ولو عاش في أعماق الريف.

***　　　　***

فاروق جويدة.. وعطر الدم!

يعد الشاعر "فاروق جويدة" من الشعراء المظلومين في الحياة الأدبية المعاصرة؛ لأسباب عدة في مقدمتها : انتماؤه إلى الدائرة العربية الإسلامية، وهى دائرة غير مرغوبة لدى التيارات المهيمنة على الساحة الأدبية والنقدية، ويتم التعتيم على المنتمين إليها أو الانتقاص منهم، ومنها عمله في الصحافة الذي يجعل بعض محبيه يتحرجون من تناول أعماله الأدبية والفكرية مخافة الاتهام بالتملق أو المجاملة، ومنها ترفعه عن استخدام العلاقات العامة في الترويج لكتاباته، وأحسبنى قد ترددت كثيراً قبل الكتابة عنه لبعض هذه الأسباب، وإن كنت قد أشرت إليه في كتابي "الورد والهالوك"؛ بوصفه واحداً من شعراء الأصالة، كما سعدت بتسجيل أحد الطلاب رسالة ماجستير حول شعره في الكلية التي أعمل بها، فضلاً عن رسائل أخرى أشارت إلى مسرحه الشعري أوشعره بصفة عامة.

في ديوانه الجديد الذي صدر مؤخراً بعنوان "قصائد للوطن"؛ يواصل "فاروق جويدة"، غناءه الحزين الشجي الغاضب من أجل الأمة المستباحة التي تكالبت عليها المحن والأرزاء، وطمع فيها الطغاة وشذاذ الآفاق من الحالمين بصناعة إمبراطوريات الشر والهيمنة. لم ينشغل الشاعر بذاته أو نفسه كما يفعل بعض الطواويس من النرجسيين، ولم يرح شعره من الهمّ العام ويلجأ إلى ما يسمى شعر الجسد أو الإلغاز، كما فعل بعض الذين خرجوا من التاريخ، وانغمسوا في خدمة الثقافة الغربية في جانبها المظلم وحسب.

الهمّ العام يشغل مساحة عريضة في وجدان الشاعر، إن لم يشغل المساحة كلها، يؤرقه ما يجرى للمواطن العربي والمصري عامة، والإنسان الفلسطيني المشرد المعذب خاصة، واتساع مساحة الرأي العام يقابله اتساع مواز في البناء الفني للقصيدة الشعرية في ديوان "قصائد للوطن"، فالقصائد مطولات تعبر عن قدرة شعرية ملحوظة، ونفس شعري ملموس، وكأن أشجان الوطن بمعناه العربي

الإسلامي العام لا تكفيها قصيدة قصيرة، أو قصيدة ومضة كما يقولـون، لأن هـذه الأشجان غير محدودة، ولا تتوقف عند تخوم معلومة، إنها ممتدة امتداد الأفـق، عـلى المستويين الداخلي والخارجي.

ولغة الشاعر تسعفه في الفضفضـة المسـتمرة التـي تأخـذ شـتى الاتجاهـات، يردف بعضها بعضاً، ولعل هذا ما يجعلها لغة جهيرة ساطعة لا تعرف المـداورة ولا المناورة ولا إمساك العصا من الوسط، قد يراها البعض أقـرب إلى الخطابـة، ولكـن من قال إن زماننا تجدي معه الهدهدة أو الهمس أو اللمـس الرقيـق، وقـد بـات الألم العام أكبر من أن يكبت تأثيره الصارخ والعارم؟

في قصيدته "لن أسلم رايتي"، مواجهة قوية في زمن الاستسلام والانبطـاح، ولغتها قوية تحمل خصائصه الشعرية بصفة عامة في التعبير عن واقع ميـت أو شـبه ميت، يثير الحنق والغيظ والغضب، وفى الوقت نفسه يثير كثيراً من الأسى والحزن، ولكنه مع ذلك يحمل بذور الأمل بالتضحية والفـداء في خضـم الإحبـاط واليـأس والقهر.

لـن تسـمعوا صـوتي.. ولا صـرخاتي ... مـا عـاد يجـدي النصـح في الأمـوات
من منجدي في الحرب.. سيف عـاجز ... أم أمـــة ركعـــت لقهـــر غـــزاة
أيــن الطريــق وقــد تراخــى عزمنــا ... وأسـود وجـه الكـون في نظراتـي؟
إني كرهت الركض خلف هواجس؟ ... وأضعت في الزمن البغيض حياتي!

لا شـك أن تكـرار معـاني الانكسـار والعجـز التـي تغلـف الواقـع العـربي الإسلامي، يؤدى دلالة تتجاوز تأكيد ما يجرى والتعريف به، إلى دلالة أخرى تفهم بالمخالفة من سياق الإلحاح عليه، وهو استنهاض الهمم الميتة وبعثها لتدب الحياة في أوصالها وتتجاوز الواقع المأساوي وملامحه القاتلة، وقد بشر الشاعر صراحـة بهـذه الدلالة فيما بعد من خلال ترحيبه بالشهادة والشهداء، فالـدماء هـي طريقنـا الـذي

يصنع المعجزات، وعطر الدم هو القول الفصل في واقع الأقوياء الـذين لا يفهمـون غير لغة الدم، ولا يتعاملون إلا بها:

لا شـيء أغلـى مـن دمـاء مقاتـل — بالــدم يكتــب أروع الصــفحات
والآن نرســم بالــدماء طريقنــا — هـل بعـد عطـر الـدم مـن كلمـات ؟
الآن أسمــع صــوت كــل شــهيدة — قــد زينــت بــدمائها رايــاتي...

وشعر "فاروق جويدة" يستدعي رموزنـا الظـافرة ليـذكر الأجيـال بـماض مشابه، كادت فيه الأمة أن تمحى تماماً تحت رايات الغزاة الصليبين والتتـار، فخـرج لهم رجال باعوا الدنيا واشتروا الآخـرة حتـى اسـتعادت الأمـة كرامتهـا وحريتهـا واستقلالها. وها هو "صلاح الدين" رمز الإسلام والبطولة والفخار يقود الأمة إلى موقعة من أشرف ما عرفت جهاداً وبطولة وفداء:

هـذا صـلاح الـدين يسـمع صـرختي — ويطـل مـن بـين الظـلام العــاتي
أنـا يـا صلاح الـدين خلفك لا تخف — فلـديك شـعب واثــق الخطـوات
قـم يـا صـلاح الـدين هـذا شـعبنا — يرمـى حمـى الشيطان بـالجمرات
قـم يـا صـلاح الـدين واسمـع أمـةً — تبكـى علـى أمجـادك العطـرات...

ومع ذلك، فإن بعض الذين تعفنت قلوبهم بفعل الطائفية الممقوتة أو المذهبية المتعصبة يدعوننا أن نخلع صلاح الـدين مـن التـاريخ والجغرافيـا! ولكـن فـاروق جويدة يستعيده في شعره كما يستدعى آخرين بحثاً عن لحظـة البعـث المنتظـر التـي تتحرر فيها الأمة من الخوف والقهر والانبطاح والقـبح، وتسـتعيد زمـام المبـادرة، فترفع رايتها الظافرة ولا تسلمها أبداً، ويخلص الرجل لبحثه عبر قصائده الطويلـة، عمودية وتفعيليه، في اقتراب حميم من القارئ ينبئ عن روح شفافة وفن أصيل.

"أغنيات الصبا والرماد"

صاحب هذه المجموعة شاعر شاب، هو الدكتور "عزت سراج"، يمتلك موهبة قادرة على العطاء في أكثر من جنس أدبي، غير الشعر، فهو قاص متميز، وكاتب مقالة محكمة، ولعله يخبئ في أوراقه مشروعات للرواية والمسرحية الشعرية والمسرحية النثرية، فضلاً عن اهتماماته الأساسية في مجال الدرس الأدبي والبحث العلمي، وكانت رسالته للماجستير عن الشاعر العربي الأشهر في عصرنا "عبد الله البرد ونى"، ثم رسالته للدكتوراه عن شاعر آخر هو "ابن هتيمل"، من أهم الدراسات الأكاديمية التي لقيت ثناءً فائقاً، سواء من الناحية المنهجية أو الدقة البحثية.

و"أغنيات الصبا والرماد"؛ تصب في الإطار الإبداعي الذي يعبر عن أصالة الشاعر وسطوع موهبته، وعمق ثقافته، وقدرته على توظيف موهبته في التعبير عن واقعه الذاتي وربطه بالواقع الاجتماعي، مع ما في الأخير من أوضاع متردية، وأحوال بائسة، وآمال مجهدة، ولكنه بصفة عامة يتجاوز هذا الواقع وإن لم يعترف بذلك- من خلال إنتاجه الأدبي، ومواجهة الحياة بيقين الإيمان الراسخ، والرضا الذي يدفع إلى الأمام، وليس الرضا الذي يؤدى إلى الاستسلام واليأس والإحباط.

ثم إن "عزت سراج" يملك نفساً طويلاً، وقدرة ملحوظة على الإنشاد، ولعله تأثر في هذا السياق بشاعره المحبوب "عبد الله البرد ونى"، بل إننا نكاد نحس أنفاسه تتحرك في بعض قصائده، مما يعنى أن "عزت سراج"، لم يتعايش مع النماذج المتواضعة التي يقلدها من يطلق عليهم جيل التسعينات أو من جاء بعدهم؛ فجاءت أشعارهم مغلقة واهنة بل إن بعضها يكاد يكون مجرد كلام سخيف، وثرثرة فارغة لا مضمون لها ولا غاية.

ومجموعة "أغنيات الصبا والرماد" تشف عن نزعة رومانتيكية حالمة في أغلب قصائدها، لأنها تعبر عن مرحلة الشباب الموّارة بالأحلام والآمال والأماني،

ورؤية الحياة بمنظار وردى بهيج، فإذا واجهته عقبة أو معضلة، فإن الأمور تنقلب، وتتحول إلى شيء آخر، ولكن الشاعر في كل الأحوال، يواصل مسيرته حزيناً تارة، وغير مبال تارة أخرى، حريصاً على إثبات وجودة وكينونته بمقارعة الواقع ومغالبته، والإبداع شعراً ونثراً.

ولو نظرنا إلى اقتران "الصبا والرماد" في عنوان المجموعة، لوجدنا تعبيراً دالاً على تلك المرحلة العمرية التي عاشها الشاعر وقت كتابة المجموعة (أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات)، ثم إنها تشير إلى العواطف الجياشة والأماني المحبطة التي تحولت إلى "رماد" يذكره الشاعر بعد أن امتلأ واقعه بالخيانة والغدر واغتيال الموال والجسد الميت والأوراق الملقاة، والحطام الذي تبقى بعد تجارب مليئة بالأمل والألم، والفرح والحزن، والإحساس بعدئذ بأن العالم في جانب، وهو في جانب آخر.

ظواهر فنية عديدة يتميز بها شاعرنا، وقد أشرت إلى بعضها من قبل، ولعل أبرزها ظاهرة "الإنشاد" التي تشعرك أنك في حضرة البرد ونى عاشق الإنشاد و"السلطنة"، وهو يترنم بقصيده في حضرة الجمهور المحتشد لسماعه والتصفيق له، بعد أن يتمايل مع موسيقاه الفخمة والجهيرة، والمغايرة في الوقت ذاته للآخرين.

اسمعه مثلاً في قصيدته المطولة "تراتيل"، وهو يحكى تجربة تضج بالمشاعر، وتشتعل بالعواطف، ويستدعى فيها التراث الشعبي ورموزه وطقوسه، ويوظفه في بناء رومانتيكى مفعم بالحيوية والنشوة الفنية :

تراتيـــل الهـــوى شـــفة   تعتـــق ريقهـــا القبـــل
إذا غنـــت علـــى الشـــطآن   ردد رجعهـــا المهـــل
وأشـــجى بليـــل بـــاك   علـــى أغصـــانها ثمـــل
فلـــيس كوجـــده وجـــد   ولـــيس لشـــدوه مثـــل
شمـــوع الـــروح- باكيـــة-   تـــذوب مـــع الألى رحلـــوا
وتفـــتح اللظـــى بابـــاً   وجرحـــاً لـــيس ينـــدمل...إلخ

نحن أمام لغة خاصة، وصياغة مجتهدة، وبناء شعري يعتمد صورة تقوم أو تقترب من تراسل الحواس الذي نراه عند "محمود حسن إسماعيل"... وفى الإطار العام يقوم الشاعر "بالإنشاد" والإمتاع، من خلال وعى حاد بالموسيقى الشعرية، يثبت لمن يرون الموسيقى الشعرية الموروثة قيدًا يحد من تدفقهم أو يغل من طاقاتهم- عدم صواب هذه الرؤية؛ فالشاعر الموهوب الذي يملك أدواته، وفى مقدمتها الموسيقى، يستطيع أن يزاحم في الساحة الشعرية، ويتقدم على غيره، بل يتفوق، ويصل إلى مرحلة التميز... وهو ما أثبته على الأقل اثنان من كبار الشعراء العرب: الجواهرى والبرد ونى، وأكدته نازك الملائكة.

وإذا كان "عزت سراج" من هواة "الإنشاد" والإمتاع، فهو أيضا يملك القدرة على التكثيف والإيجاز، وتقديم "الومضة الخاطفة" التي يسميها علماء البلاغة الإيجاز أو المعنى الكثير في اللفظ القليل لغاية بلاغية، كما نرى في ومضة "حسد":

بدر التمام بنوره — شوقاً يناديك
حسداً تمنى أن — ينال جميع ما فيك

وإذا كانت المجموعة في مجملها تدور في أفق روحي معنوي، تطل منه أحياناً بعض اللفتات الحسية، فإنها بصفة عامة نبعت من مرحلة العنفوان والجيشان والأحلام الوردية الموءودة.. وعبرت عنها تعبيراً جيداً وجميلاً، يعد بشاعر له مستقبل كبير إذا واصل مسيرته الإبداعية، ولم تشغله هموم الحياة وتداعياتها التي لا تنتهي، وتجعل القابض على الإبداع، مثل القابض على الجمر.

*** ***

شاعر الحلم والسنبلات

يظل الريف المصري؛ مع كل التغييرات الاجتماعية الصاخبة، منبع الصفاء الروحي، والنقاء الفكري فى التعبير عن قضايا الأمة وحركة الشعور والوجدان،من خلال كتابات أبنائه الذين لم تلوثهم صراعات الحياة الثقافية فى العاصمة المكتظة بالبشر والحجر، والأفكار والأحداث.

والشاعر الحسيني عبد العاطى واحد من أبناء الريف الذين يعيشون خارج العاصمة (فى كفر الزيات) ويقوم بالإنشاد لنفسه وللمجتمع وللأمة، فى رضا وقناعة تشبه الزهد، آملا أن تصل كلماته للناس سواء من خلال الزجل أو ما يسميه شعر العامية، أو من خلال الشعر الفصيح الذي أصدر منه مجموعتين- على نفقته الخاصة- الأولى "سنبلات الحلم" عام 2006م، والأخرى "طفل يمتشق النور" عام 2007م.

لم أطلع على مجموعته "كلام الناس" وإن كان العنوان فى المجموعتين يشير إلى نزعة رومانتيكية حالمة تنتظم ديوانيه بالفصحى، وتقدمان براءة الإنسان (الشاعر) الريفي الطيب الذي يحلم بنضارة العالم وبراءته وخلوه من الشر والعنف والدماء. وهو حلم موصول بالإيمان بالله، لا يتسكع فى دروب الحيرة أو الشك أو الضبابية، ولكنه إيمان ساطع يورث يقينا مؤكدا، وعواطف نبيلة، وإخلاصا ممزوجا بالعطاء والرضا والاعتزاز بالنفس.

وتأتى هذه النزعة أحيانا فى صورة مركزة خاطفة، ولكنها دالة ومعبرة عن موهبة فطرية تشي باستعدادها للنمو والعطاء فى المستقبل بصورة أكبر وأعمق. لنقرأ هذه اللقطة فى مجموعة طفل يمتشق النور بعنوان "يقين". يقول فيها:

إذا مس نفسي ... يزول يقيني
وإلا فلا شيء ... قد يحتويني

لغة الشاعر بسيطة، ولكنها مركبة تركيبا موحيا، يعبر عن الفكرة التي تترجمها كلماته وصياغته، وقد جاء هذا التركيب مكثفا يغنى عن قصيدة مطولـة قـد تضـيع الفكرة فى ثناياها، وقد تتعرض للتشتيت، على النحو الذي يمكن أن نلحظ شيئا منه فى القصيدة السابقة على هذه القصيدة اللقطة.

فقصيدته "يا مولاي" التي يقف فيها ضعيفا راجيا عفو ربه، يسهب فى بيـان حاجته إلى أن يفتح له بابـا ليعلـو فـوق الأحـزان والأمـراض، وأن يمنحـه الحـب والرحمة والحنان والمنة والحكمة، وأن يعلمه كيـف يقهـر الشـيطان وهمزاتـه فى كـل حياته، ويدعوه أن يكون فى معية رسول الله ﷺ ليطمئن قلبه ويتبدد همه:

"لا شيء يبدد همي/ يا مولاي سواك/ فـالنور/ أيـا نـور النـور/ إن دخـل القلب فذاك رضاك/ وأنـا إنسـان مـن طـين، هـام بحـب الله/ أسـألك الرحمـة يـا مولاي/ والقرب من المعصوم/ محمد/ محبوبى..." (طفل يمتشق النور: 109-110)

ويستمر فى الضراعة من خلال لغته الإيمانية، التـي نـادراً مـا نعثـر عليهـا فى أشعار زماننا، وخاصة لدى شبابنا الذي طوحـت بـه الـرؤى والأفكـار فى مجاهـل متشعبة، بل وأسـلمته إلى أنفـاق مظلمـة مـن الناحيـة الفنيـة أيضـا، أخفهـا عتمـة الغموض، وأشدها ظلمة رفض الموسيقى والادعاء بشعرية النثر.

القصيدة اللقطة عبرت عن الدلالة نفسها تقريبا بصورة أفضل من القصـيدة التفصيل والإسهاب مع أن الأخيرة لها قيمتها الفنية أيضا، ولكن التركيز له فاعليته الأكثر تأثيراً.

ولا ريـــب أن اللغـــة الإيمانيـــة التـــي ســـطعت في القصـــيدة الســـابقة (يـــا مولاي)؛تقابلها لغة رومانتيكية ثائرة تعبر عن نفسها فى مجالات عـدة، وخاصـة فى المجالين الوطني والقومي، وهذه اللغـة تقـع أحيانـا فى فـخ الجهـارة التـي تنسـف الشاعرية أو تكاد، أو تحولها إلى هتاف يقلل من قيمـة بعـض القصـائد. تأمـل مـثلا قصيدة "فحيح الأفاعي" في مجموعته "سنبلات الحلم". بداية من عنوانها تستشـعر

لغة هجائية تستعير المجاز لتصور حال الأمة التي تقول ما لا تفعل وتدعى البطولـة فى واقع مهزوم، وهى إذ تنتقد هذا التناقض بلغتها المجلجلة، فإنها تلجـأ أحيانـا إلى الاقتباسات المشابهة، فعلى سبيل المثـال تقتـبس النشـيد الشـهير الـذي كانـت تبثـه الإذاعات المصرية فى أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956م:

"نتيه افتخاراً/ بماض قد تولى/ ونار الأعادي بنا محدقه/ ونحن نقول: / ألا دع سمائي/ فإن سمائي أنا/ محرقه/ ونحن نقول:/ ألا دع مياهي أنا/ فإن مياهي أنا/ مغرقه/ وهم يمرحون/ ببر.. وبحر، وكيف لنا بعد بالأمركة/ وفى بيتنـا كـل يـوم خطوب/ وهم ينصبون لنا المشنقه" (سنبلات الحلم : 72-73).

إن العاطفة النبيلة لدى الشـاعر، وإخلاصـه لوطنـه وأمتـه، ودفاعـه النبيـل الباسل عن حمى بلاده، كل ذلك يمنح شعره بعدا مهما مفيدا شريطة أن يخفـف مـن الجهارة التي قد توقع فى النثرية، وتستدعى لزوم ما لا يلزم مـن الجمـل والعبـارات الزائدة، وخاصة أن "الحسيني عبد العاطى" يملك أدوات فنية جيـدة، أولهـا اللغـة الرائقة التي سبقت الإشارة إلى بعض ملامحها، ثم هناك قدرته الموسـيقية الملحوظـة التي جعلته ينشد قصائده وفقا لنظام الشطرين أو النظام التفعيلى، ثم هنـاك الثقافـة الشعرية- إن صح التعبير- وأقصد بها اطلاعه على الشعر القديم والحديث، وهو ما ترشح به قصائده أحيانا، وسبق أن رأينا اقتباسه لنشيد محمود حسـن إسـماعيل (دع سمائي)، وهناك ما يذكرنا أيضا ببعض الشعراء السبعينيين وكان الشـاعر الحسـيني قريبا منهم، مثل الشاعر الراحل عبد الله السيد شرف صاحب قصـيدة "أحبينـي"، التي يبدو الحسيني كأنه يعارضها بقصيدته "أجيبيني":

"وكوني أنت البلسـم الشـافي/ فطيـف منـك يشـفيني: وعيشي ـ في شـغاف القلب/ نبضا فى شراييني/ فأنت الري/ للعطشى/ ومنك القطر/ يرويني/ وكوني الروح للقلب/ فإن الروح تحييني/ (سنبلات الحلم: 89-90).

وبصفة عامة؛ نحن أمام شاعر واعد يملك اللغة والموسيقى والقدرة على التصوير، فضلا عن تمسكه بالحلم فى زمن عزت فيه الأحلام، وتبددت الآمال، وهو حلم ليس معلقا فى الهواء، ولكنه يضع قدميه على الأرض، مدركاً طبيعة هذه الأرض وما فيها من متاعب وآلام "فكم شربنا من الإذلال ألوانا" (سنبلات الحلم : 56)، وهو ما يجعل حلمه أيضا موصولا بالسماء من أجل التغيير وتجاوز العقبات.

*** ***

جيل من الموهوبين شعرا

ولّى شعراء الجسد والتجديف والهالوك والعلّيق الأدبار. لم يبق لهم أثر فى الساحة الشعرية اللهم إلا بعض الضجيج حول المناصب والمكاسب فى المؤسسة الثقافية أو الإعلامية، حتى إنتاجهم الغامض الملغز لم يعودوا قادرين عليه، فقد كانوا- كما توقعت قبل عقدين من الزمان- مجرد هالوك يتسلق على غيره بحكم فساد التربة وإهمال الرعاة أو كسلهم أو تواطئهم.. ولأن مصر ولادة، فقد استقبلنا فى السنوات الماضية جيلاً جديداً من الشعراء، يملكون الموهبة والطاقة، وقبل ذلك يملكون سلامة التصور ورسوخ الإيمان وعمق الانتماء، فجاءت أشعارهم تعيش واقع الأمة وتختلط بترابها ودماء شهدائها، وتغنى للأمل فى قلب اليأس، وتزرع النور فى قاع الظلمة وتهتف بالنصر والشهادة فى آن.

هذا الجيل منثور على أرض مصر جنوباً وشمالاً، غرباً وشرقاً، يعزف بلا كلل، وينشد بلا ملل، ويسعى إلى تقديم نفسه وإيصال صوته بوسائله الخاصة، ومعظم أفراده ينشرون خارج المؤسسة الثقافية الرسمية التي تضع شروطاً وطقوساً ذات طبيعة غامضة (أحدهم رفض أن ينشر قصيدة لشاعرة محجبة قبل أن تخلع الحجاب!)، ومع ذلك فهم يواصلون مسيرتهم، مؤمنين برسالتهم (الشاعر يشبه النبي في قومه ويؤدى رسالته بصورة ما) لا يتراجعون عن الغناء والإنشاد.. وغناؤهم جميل، وإنشادهم عذب، وهم فى كل الأحوال يتطورون لغة وتصويراً، وبناءً وإبداعاً.

من هذا الجيل الجديد كوكبة من دار العلوم، على رأسها "أحمد بخيت" الذي فاز بجائزة البابطين عن قصيدته الطويلة التي نشرتها "آفاق عربية" قبل فترة، ووحيد الدهشان، ومحمد فؤاد، وأيمن صادق، ومحمد المليجى، ومصطفى مقلد، وأمين الديب، ومحمد عبد القادر الفقى، ومحمد يونس(نلاحظ أن الثلاثة الأخيرين من أجيال أسبق، ولكنهم مازالوا ينشدون).

"أحمد بخيت"، من وجهة نظري، يعد خلفاً متطوراً، أو صورة منقحة "للدر عمى الكبير" "محمود حسن إسماعيل" الذي سماه "محمد منـدور" وحـش الشـعر، وهو يمتلك أدواته الأصيلة التي ترفدها ثقافة عربيـة عميقـة ووعـى حـاد بـالواقع المأساوي للأمة، ونفس طويل يمكنه من الإنشاد العـذب الـذي لا تفارقـه الحيويـة والإدهاش، والبساطة أيضا.

"وحيد الدهشان" غزير الإنتاج، وينظم بالفصحى والعامية، وقـد تفـوق فى الأخيرة تفوقاً كبيراً، وخاصة فى "رباعياته" التي تعد تطويراً معاصراً لبيرم التونسي، سواء في معالجة القضايا العامة أو الخاصة، وقدرته على استخدام التفعيلـة أو شـعر الشطرين، لا تحتاج إلى تدليل، وقد أصدر مؤخراً ثلاث مجموعات واحدة بالعاميـة "أصداء الشوق والرجاء" واثنتين بالفصحى "القدس فى القلـب" و"غـدا لا ينفـع الندم" ، ومن الأخيرة قوله :"أعـرف أن البـون كبـيرُ بـين الشـاعر والطبـال/ بـين الكاتب والمحتال/ بين الهزل وبين الفكرة تسمو تصبح مثل النجمة/ تنقذ مـن تيـه وضلال...".

"محمد فؤاد" شاعر من المنيا، نشر معظم قصائده خارج مصر فى مجلات العالم العربي، وأصدر مجموعة بعنوان "دماء على خيـوط الفجـر"، وظهـرت لـه مـؤخراً مجموعة بعنوان "الركض إلى حدائق الأحبة"، وهـو يـنظم أيضـا فى شـعر التفعيلـة وشعر الشطرين، وتدور معظم قصائده حول فلسطين والمقاومـة والشـهادة، ومـن قصيدته التي تحمل عنوان مجموعته الجديدة، قوله :"كيف ألملم حزن أبى/ وقميص أخي/ إن جرح الأحبة ما زال ينزف/ أيتها الصافنات الجياد اركضي-/ هـل نسـيت دموع "محمد"؟ هل نسيت دموع "محمد"؟ وغصن من التين ما زال يبكى/ حجارة أرضى..".

"أيمن صادق" شـاعر مـن الإسـكندرية، وأصـدر ثـلاث مجموعـات هـي: سمريات، سمر وحلم النوارس، والموت على قارعة النشيد، والمجموعات الـثلاث

تضم شعراً تفعيلياً، وشعراً تقليدياً، وقد قدم مجموعتهالثالثة الشاعر "أحمد سويلم" وأشار إلى أنه استطاع أن يثبت خطاه ويحفر لنفسه مساراً مختلفاً عن كثير من رفاق جيله، ومن قصيدته "لقاء" ؛ قوله :

"أجيء إليك/ يطارد قلبي انصهار المسافة/ ما بين عبء النهار.. ودفء المساء/ وأغسل- حين تلوح البشارة- وجه اغترابي...)

"محمد المليجى"شاعر من الدقهلية، وهو أزهري النشأة والعمل، ولعل هذا ما جعله يعتمد شعر الشطرين دون شعر التفعيلة، ويغلب على شعره روح الثورة والهتاف، وقد صدرت له مجموعتان "أذن يا بلال" و"أشجار رام الله تنادى" ومن قصيدته "أحمد ياسين" فى المجموعة الثانية:

شيخ الجهاد تحية وسلاماً ... (ياسين) طبت معلما وإماما
لبيت صوت القدس ينشد مسلما ... عمرا.. صلاح الدين.. أو قساما
ناديت حيّ على الجهاد تهزنا ... نبرات صوتك عزةً.. إقداما..

"مصطفى مقلد" شاعر من الشرقية، وحصل على بكالوريوس تجارة، ينظم فى الشكلين: التفعيلى والتقليدي، أصدر مجموعة "همسات ثائرة"، ومن قصيدته "الضحايا والجواد": (كل من ماتوا من القهر ومن ظلم الطغاة/ قد أتوك اليوم مرفوعى الجباه/ قد أتوك اليوم يا قدس../ فثوري/ واستعدى للنجاه).

"أمين الديب"، أو الشيخ أمين، شاعر العامية، الذي اشتهر في كهولته، يعيش فى إحدى قرى الجيزة، تفجرت شاعريته مع الانتفاضة، وأصدر مؤخراً مجموعة من وحى أحداث سبتمبر فى نيويورك بعنوان "بكره حتبان الحقيقة"، وأصدر قبلها مجموعتين: "إيه معنى إن الحجر بيخوف المحتل" و"آخر كلام".

"محمد يونس" و"محمد الفقى" يمثلان مع الشيخ أمين جيلاً أسبق، وشعرهما، كما شعر الآخرين يحتاج إلى دراسة أعمق وأوسع، وقد أصدر يونس مجموعة بعنوان "الحرث فى البحر"، ومجموعة مشتركة بعنوان :"تصغي ويقول

الموج". أما الفقى فقد صدرت له ثلاث مجموعـات : إيقاعـات عـلى أوتـار البيئـة، لعينيك غنيت، رُدّوها على، وأشرت إلى بعضها في مكان آخر .

هذه الإشارة السريعة إلى صوت الأصالة فى شعرنا المعاصر، لا تعنى أن الأمر قاصر على من ذكرت وحسـب، ولكـنهم مجـرد أمثلـة، تؤكـد عـلى امتـداد جـذور الموهوبين الحقيقيين فى تربة بلادنا، وتدل على نضج المواهب الشـعرية واسـتمرارها فى الغناء والإنشاد، حتى لو أغفلتهم المؤسسات الرسمية وأجهزة الدعاية.

شاعر الخيول المجهدة

هذا الشاعر الريفي يملك طاقة شعرية ملموسة عبر عنها فى إنتاج شعري غزير ما بين مجموعات مطبوعة؛ وأخرى مخطوطة أو معدة للنشر، ومن هذه المجموعات : حبيبتي والبحر والسماء (1990) هكذا أحبك (1993) لا تدعني (1993) للعشق أيضا حضارة (1996) شلال حب (1996) حبيبتي والخيل والضفيرة (2000) ثنائية الجرح والرحيل (2006) وسقطت أوراق التوت (2007) ومن المجموعات التي لم تطبع "غنيتك" و"قصائد جديدة".

ويعتمد الشاعر بصفة عامة على شعر التفعيلة ويكاد يحصر شعره فى بعض البحور الصافية، ولديه مقدرة واضحة على التقفية واستخدام القوافي الصعبة أو غير المطروقة إلا قليلاً. ويصعب الوقوف عند كل الظواهر الشعرية التي تشيع في شعر "صلاح السقا" الذي يعيش فى مدينة دسوق بمحافظة كفر الشيخ؛ وينشر شعره فى المؤسسات الرسمية بالقاهرة، ويذيعه عبر برامج الإذاعة المختلقة وسوف نكتفي بالإشارة إلى بعضها.

الظاهرة الأولى تتمثل فى التكرار؛ تكرار الفكرة أو تكرار الألفاظ، ويمكن لقارئ شعره أن يجد فكرة الإحباط والإجهاد (الخيول المجهدة) وعدم الوصول إلى الغاية؛ مبثوثة فى كثير من القصائد يعبر عنها بالجرح والوجع والألم والوداع والسحب والدخان والانتظار ونفاد الصبر والشظايا والهجر والدجى والأطلال والغياب والانفلات والترقب والحزن والمكابدة والمستحيل والخوف والرثاء والدموع والسفر والاغتيال والفقر...الخ

وفكرة الإحباط لا تقتصر على ما يخص الشاعر وذاته، ولكنها تمتد إلى الواقع الوطني والقومي بما يجرى فيه من أحداث فاجعة وظلم يعربد فى آفاق الأمة: فلسطين وبغداد وغيرهما..

فى مجموعته "حبيبتي والخيل والضفيرة" يجسد من خلال قصيدته الطويلة "قصائد مستقلة ذات سيادة "ملامح الإحباط الذي يخيم على الوطن المغيّب فى المدى والخطى المتعبة والعيون المعصوبة والرؤى الغانمة، وإن كان الشاعر لا يستسلم للإحباط ويطمع فى رحمات الله أن تلملم شتاته وتترك انكفاءاته، فالمدى فى امتداد المنى، ولكن إلحاح القهر والهزيمة يطل برأسه من حين لآخر:

"كل الخيول المتعبات/ المرهقات النازفات/ على الدروب/ سفكت دمى/ كل الطيور الصاعدات/ النازلات الناظرات للسفوح/ اشتقن لي .. (ص20)

وهذا الإحباط أو تلك الهزيمة المستديمة- أن صح التعبير- يغلفها حزن عميق دفين يقدمه الشاعر فى صورة جديدة مبتكرة فى نهاية القصيدة:

"شموعنا محطة/ وليلنا قطار/ رفاقنا قد سافروا/ قلوبنا ما لوّحت/ ما لاحقت رفاقنا/ تسمّرت كفوفنا/ وحزننا دفين" (ص 21)

وإذا كان تكرار فكرة الإحباط وما يستتبعها من قهر وهزيمة ولوعة وحزن؛ تؤكد على اندماج الشاعر فى واقعه الفاجع البائس، فهناك تكرار لفظي يفيد الإصرار على الدلالة أو تعميق المعنى أو تحسين الإيقاع التعبيري أحياناً، وكأنه لعب بالكلمات فى يد الشاعر الذي يملك السيطرة على معجمه.

ولعل التكرار اللفظي يتمثل بوضوح فى قصيدته "عبق من عبق" التي تضمنتها مجموعته" ثنائية الرحيل والجرح" (ص 76) فهو يكرر لفظة العنوان للتأكيد (عبق عبق) أو شيء من الأرق/ قلق، أو يكرر لفظة من أجل زيادة المعنى "وجع على وجع" أو "عبق على عبق".

وهناك أيضا تكرار للجملة يأتي في ثنايا بعض القصائد ومهمته التأكيد على فكرة القصيدة بصفة عامة أو شد انتباه القارئ لما يريد الشاعر قوله. فى قصيدته (لا وقت للانتظار) يؤكد هذا المضمون من خلال تكراره بألفاظ أخرى "ما عاد وقت

ينتظر"، أو يشير إليه بتركيب آخر "ها نحن فى وقت الخطر/ ها نحن فى وقت الخطر": (ثنائية الجرح والرحيل: 64-65)، وبصفة عامة فالتكرار مبثوث فى كثير من القصائد وكثير منه يأتي مفيدا للبناء الشعري.

ومن الظواهر المهمة أيضا تأثر الشاعر بالقرآن الكريم والتراث الإسلامي بصفة عامة، وهو تأثر يتسع حضوره فى أشعار "صلاح السقا" بدءا من الإهداءات التي يصدر بها مجموعاته الشعرية إلى أبياته ودلالاته مروراً بعناوين القصائد.

فى مجموعته (ثنائية الجرح والرحيل) يهديها إلى شعبي فلسطين والعراق اللذين أريقت دماؤهما "فأراقا دمائي التي سالت أودية وقصائد" وهو يشير بهذا الإهداء إلى الآية الكريمة ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الرعد:17]

وتضم عناوين بعض القصائد إشارات واضحة إلى القصص القرآني أو الآيات القرآنية مثل : الهدهد والنبأ العظيم واخفض جناحك وأولاد القردة والخنازير ، وهى الأرض أتاها المخاض ، وعيناك أم ذوات أفنان ، وكالسيل العرم ، وفاتحة الغياب، وهذه الإشارات فى سور النمل والإسراء والمائدة ومريم والرحمن وسبأ والفاتحة على الترتيب.

وقد يأتي التأثر القرآني في سياق تعزيز المعنى وإضفاء نوع من قوة التركيب عليه؛ مثلما نرى فى قصيدته "اغتيال" التي يقول فيها "صلاتي تفجر في/ الاثنتى عشرة عينا/ تزرع نخلا/ زيتونا... وحدائق غلبا" (حبيبتي والخيل والضفيرة، ص 63) والأبيات تعتمد على آيات سورتي البقرة: 60 والأعراف : 160، وسورة عبس : 28-29؛ وقد يتجاوز التأثر القرآني حضوره فى التراكيب ليضيف إلى المعنى بعداً أعمق كما نرى فى قصيدته "مرثية أخرى للنواصرة" التي يستدعى فيها إلقاء يوسف فى الجب بمعرفة إخوته وتسخير الريح لسليمان فى سورتي يوسف وص.

"ألأنك تسكن فى القلب؟/ أم أن القلبين النهرين/ الوجدين/ التقيا فى الصب/ أم أن ليوسف/ رأيا آخر فى الجب/ هل تسمح ريح سليمان/ أن تحمل

شعري المسفوح على الدرب؟/ ويقص عليك الطير المنزاح عـن الركـب؟ "(ثنائيـة الجرح والرحيل: 70).

ثمة ظواهر أخرى عديدة تحتاج إلى مجال أرحب للوقوف عندها فى مجموعات الشاعر سواء ما يتعلق باللغة أو التصـوير أو معالجـة القضـايا الوطنيـة والقوميـة، وكلها تدل على أن الشاعر يملك طاقة شعرية متدفقة ولغة جيدة. وبصفة عامة فإن ما تقدمه مجموعاته تشير إلى شاعر واعد وجيد.

*** ***

العربي - قصيدة... فيديو كليب

أكثر من مقال، وأكثر من ندوة، وأكثر من برنامج حول ذلك النبت الشيطاني المسمى "قصيدة النثر"، ملأ الدنيا من حولنا مؤخراً، وكأنها قضية حياة أو موت، تفوق فى أهميتها الجيوش والأساطيل والصواريخ والقنابل التي تتأهب للفتك بالعرب والمسلمين، كما جرى فى العراق وما حولها..

ونحن نقول للمحاربين القدماء والمحدثين من أجل القصيدة النثرية: هونوا عليكم، فلم يعد فى بلادنا ما نخاف عليه، ولا الشعر ولا النثر، ولا الجنيه ولا القرش، ولا الاقتصاد ولا القيم، كل شئ صار سراباً أمام الهيمنة الأمريكية والاستبدادية.. من يفقد الحرية لن يجدها فى النثر ولا الشعر، ولو أعلنا الآن انتصار ما يسمى بقصيدة "النثر" على الأجناس الأدبية كافة، ووضعنا على رأسها أكاليل الغار والفخار، فما زلنا مهزومين أمام الشيطان الأكبر وتابعه الشيطان الأصغر،وصار الآخرون يخططون لنا، ويتحدثون عن مستقبلنا، ويبرمجون ثقافتنا وتعليمنا، ويحكمون لنا أو علينا..

غريب هذا الاهتمام المفاجئ والمكثف بما يسمى قصيدة "النثر" فى وقت حرج، ينشد فيه الناس مخرجاً من "أزمة ذل" قومية وإسلامية غير مسبوقة،ويتنافس المتنافسون ليثبتوا أن "قصيدة النثر" أحدث صيحة فى صيحات التجديد الشعري ، وأنها "المنقذ من الضلال" لجمود الشعر العربي وسلفيته وأصوليته، وأنها الوريث الشرعي لما كان يسمى شعر التفعيلة الذي انقرض بفعل عوامل التعرية، والرتابة والتكرار والتقليدية!.

نحن إذاً أمام فتح جديد، هو فتح الفتوح الذي يعجز أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب؛ كما قال المجدد الأعظم قبل ألف عام، أعنى "أبا تمام"،وعلينا نحن القراء والمتلقين أن نفهم ونفقه، وندرس التجليات الكبرى لقصيدة النثر، وأن نستعين بعشرات المراجع من أجل هذا الدرس والفقه والفهم،

كما رأى بعض النقاد، لأن المسألة تستحق هذا الاحتشاد التاريخي، حتى لو كان الذي نحاول فهمه وفقهه ودرسه مجرد "خزعبلات" كلامية، تشبه أحياناً "سمادير" السادة الذين عمرت أدمغتهم "بالمزاج" الثقيل، ومعذرة للسادة القراء" فأنا أستخدم حقي في حرية التعبير، أو الإبداع، كما يقولون، لأرصد تجليات ظاهرة من ظواهر التخلف والتردي في عصر التخلف والتردي!

مشكلة السادة الذين يقيمون "الدروع البشرية" من أجل "قصيدة النثر"،أنهم لا يطالبون بحقهم فى التعبير وكفى، ولكنهم يريدون فرضها فرضاً على العالم الأدبي، وإلغاء تراث سبعة عشر قرناً من الزمان بحلوها ومرها، وخيرها وشرها، وجيدها ورديئها ، وهذا- أصلحك الله- استبداد آخر، وكأنه لا ينقصنا إلا استبداد دعاة "قصيدة النثر" وإصرارهم على ترويضنا لنقبل ما يقولون به، وإلا فالويل لنا ولذائقتنا وللشعرية العربية وللشعرية الدولية والعولمية و"الفيديو كليبية"!

لكم أيها السادة أن تقولوا ما تريدون، وتسموه كما تحبون، وتتغزلوا فيه كما يتراءى لكم، وتنظّروا له وتقعّدوا كما يحلو لمزاجكم، ولكن لا تفرضوا على الناس ما لا يرغبون، فمن حقهم أن يختاروا، ونحن نحلم أن يكون من حقنا شيء نختاره في الحياة، بعد أن فقدنا الحق فى الاختيار زماناً طويلاً!

"قصيدة النثر" تذكرني بأغاني "الفيديو كليب". هل يعرف أحدكم معنى "الفيديو كليب" ويخبرني به؟ حتى المسميات صارت مستوردة، ولا أدرى هل استيرادها يؤثر فى قيمة الجنية المصري أم لا؟ دعوني أسأل أيضا: هل نستمع إلى الفيديو كليب لنتذوق كلمات ومعاني وأداء، أم "نسمع" بأعيننا مناظر الصراخ والندب والعويل والعواء والضجيج والتعرّي والتلوّي والهستيريا الشبقية؟ أجد مشابه عديدة وكثيرة بين "قصيدة النثر" وأغاني "الفيديو كليب" هذه،فضلاً عن ارتباطها- أي "قصيدة النثر" - بالإساءة إلى "المقدس" كما يسميه أحد النقاد ! (هل

يخاف أن يذكر كلمة "الإسلام" بدلا من "المقدس" المستوردة من بلاد لا تركب الأفيال!).

فى كل الفنون والأجناس الأدبية تقاليد وعلامات وفواصل، حتى "الفيديو كليب" يقوم على "تقاليد" يعرفها المخرج والمصور والمعد جيداً، فما هي تقاليد قصيدة "الفيديو كليب" بعيداً عن "الشبقية" أو "الإيروتكية"كما يسميها بعضهم والتجديف؟

قلت، وما زلت أقول، إن الرافعي رحمه الله كتب نصوصاً تحمل أرقى أنواع الشاعرية، وخاصة فى كتبه النثرية: السحاب الأحمر وأوراق الورد والمساكين ووحي القلم، ولكنه لم يسمها "قصيدة نثر" أو "شعراً منثورا"- كما فعل بعض مجايليه، لأنه كما قال يؤمن أن الشعر الحقيقي لابد أن يدخل فى عباءة الموسيقى التي تعنى العروض والقافية. وكل ما يخرج من هذه العباءةولو كان يحمل شاعرية عظيمة لا يسمى قصيدة. ومن المفارقات أن بعض مشاهير قصيدة النثر المعاصرين؛ استطاع أن "يعيد إنتاج" كتابات الرافعي الشعرية النثرية، وينسبها إلى نفسه ويحظى بألقاب الزعامة والفخامة فى دنيا الشعر!

لقد تحدث النقاد القدماء عن الشاعرية، وذكروا أنها ليست العروض والقافية. رأوها فى العاطفة والخيال والتصوير والصياغة وغيرها.. وجاء المحدثون منذ "المنفلوطي"، ليقولوا إن الشعر غير النظم، والشاعرية غير العروض والقافية، ولكنهم رأوا أن ذلك كي يكون شعراً مكتملاً لابد أن يعتمد على الموسيقى.

البحث عن الموسيقى، هو أساس الشاعرية. وتراثنا العربي القديم مليء بالشاعرية التي جاءت دون موسيقى، ولكنه أيضا مليء بالشاعرية التي جاءت في إطار الشعر، الذي يتضمن الموسيقى!

صاحب الشاعرية الحقيقي ، هو الذي يملك الموسيقى، ويقدر عليها ويطوعها، ونحن نصغي إليه بكل حواسنا وجوارحنا. أما من حرمته الأقدار من

الحس الموسيقى، فعليه أن يعبر عن شاعريته بالصورة التي يراها، وينبغـي عليـه أن يكف عن الاستبداد فى فرض ما ينتجه علينا باسم الشعر فـنحن أصـحاب حـق فى الاختيار.

وإني آمل مخلصاً أن يتفق السادة "المروجون" لقصـيدة النثـر عـلى قواعـد أو تقاليد تحكم قصيدة النثر، لنقرأها وفق هذه التقاليد وتلك القواعد. أما القـول بـأن كل "نثيره" تصنع قانونها، فهو الفوضى بعينها. والشعر نظام وفن وهندسة.

*** ***

شمروخ الأراجوز !

بيني وبين ما يسمى "شعر العامية" حالة من عدم التقبل المتبادل، ليس لأنني أكره الشعر أو أكره لهجتنا العامية، فحبي للشعر معروف من خلال دراساتي الكثيرة، وتمسكي بلهجتي العامية الريفية التي تعطش الجيم وتقلقل القاف؛ يعلمه أصدقائي ومعارفي.. إذا ما السر فى تلك العلاقة غير الودية مع ما يسمى شعر العامية؟

الحقيقة أنني أحببت الزجل وهى تسمية أرقى من شعر العامية مع محفوظاتى من "بيرم التونسي" و"حيرم الغمراوى" و"حيدر إمام" ثم الشعر الحلمنتيشى "الذي كانت تحتفي به صحف ومجلات عديدة منها مجلة "الهلال" العريقة فى الخمسينيات والستينيات.. ومع انهيار دولة الأدب فى بلادنا، وتحكم التيارات الشوفينية فى مسيرتها، وفرض نماذج بعينها من خلال الهيمنة على معظم وسائط النشر والتعبير، ظهر مصطلح "شعر العامية" ليضم تحت ردائه عدداً ضخماً، معظمهم ممن يدعون الشاعرية ولا يملكون أدواتها، ولا الموهبة التي تهيئ لهم استخدامها، فضربوا بالعروض والقافية عرض الحائط، كما أعرضوا عن التعامل مع قضايا الأمة، وانصرفوا لمعالجة قضايا ذاتية فى إطار من الفجاجة والسخف.. وصار من يبدى رأيا فى هذه الحالة المتداعية يجد مواجهة غوغائية مدعومة بقوة إعلامية شرسة تسكته إلى الأبد!.

ومع التحولات السياسية والاجتماعية التي أصابت الأمة والأوطان، أخذ أصحاب المواهب الذين ظهروا مع منتصف القرن الماضي يتأثرون بهذه التحولات، ويتخلى كثير منهم عن معتقداته أو تصوراته القديمة، ويسبح مع التيارات الفكرية الجديدة التي تكرس لليمكافيلية، والعيش كما يعيش الناس فى مسايرة الموجة!

كان من الطبيعي أن يقف نفر قليل ضد التيار، لا يتنازلون، ولا يتصالحون مع ميكافيللى ونظريته الآثمة، ويعيشون كما يريدون، لا كما يريد الآخرون.. هؤلاء يستحقون الإجلال والإكبار لموقفهم الفكري الثقافي والأدبي حتى لو خالفناهم فيما يذهبون إليه، فالأديب الذي يحافظ على معتقده وتصوره فى زمن الإغراءات والإرهاب، يعد عملة نادرة، وإن كانت مصر على مدار التاريخ تحتفظ دائماً بعملات نادرة فى كافة المجالات والميادين والتخصصات!

أردت بهذا الكلام أن أشير إلى الزجال الفنان "سمير عبد الباقي"، الذي أخالفه الاتجاه، وأحرص على تقديره واحترامه لثباته على موقفه وانشغاله الحقيقي وليس الكلامي بقضايا الأمة والوطن، وإصراره على التعبير الحي عن خلجات الإنسان المصري والعربي بصورة قوية وفنية ومباشرة، دون مواربة، إنه يحمل روح بيرم ولغة جاهين وعاطفة الحداد، ويقدم لقراء محدودين كل شهر، نماذج جيدة ومهمة من أزجاله وقصائده تبث فينا المتعة وروح المقاومة، وصبر الأحرار!

فى نشرة صغيرة محدودة، على ورق غير صقيل، يسميها "شمروخ: الأرجواز" تأمل الاسم الذي يذهب بجذوره فى عمق ثقافة الريف، ويمتد إلى ثقافة المدينة- وتصدر هذه النشرة شهرياً، ويؤرخها بالشهور المصرية القديمة والعربية الإسلامية والميلادية الإفرنجية، وكأنه يشير إلى خصيصة مصرية تؤكد على التسامح وهضم ما يهب على مصر من ثقافات، وتجمع كل فئات الوطن تحت سماء واحدة، ويصف النشرة بأنها "شكشكة" شعرية غير دورية بالفصحى العامية، ويجعل سعرها "ربع جنيه ومضاعفاته!" مع أنه يوزعها مجاناً على أصدقائه وقرائه..

وعلى صفحات "شمروخ الأراجوز" يعبر "سمير عبد الباقي" عن الهم العام، فى أكثر من شكل، وأكثر من صورة، وأكثر من أسلوب على الصفحات السبع، يمارس الشكشكة، ويترك الصفحة الثامنة لضيف موهوب يأتي صوته من أعماق مصر، بعيداً عن العاصمة ومترفيها ومعدميها!

سوف تجد القصيدة الطويلة ذات النفس الملحمي، والقصيدة القصيرة الخاطفة، وقصيدة الرباعيات وربع أو الخماسيات، وله فى كل منها لون وطعم ونكهة.. تأمل هذه "الرباعية وربع "من مجموعة رباعيات أو خماسيات العدد الحادي والعشرين، يقول فيها معرضاً بأحوال بعض كتاب السلطة الذين باعوا ضمائرهم:

- سى عليوة أفندي العقدة المشهور: بالعرسان
- أخر حفاظ تقاليد الكتبة فى ديوان السلطان
- الصبح إن روق بالقهوة المرة من دم الشيوعيين
- يمر فى سهرياته الفكرية بالكبة اللينة من لحم الإخوان
- ...وينام سكران طينة بعرق الأمن البعثى: الحمضان!

إن المزج بين الفصحى والعامية ليس أمراً ميسوراً إلا للزجال المثقف الذي يستخلص معجمه من واقع الروح الشعبية الحقيقية، لذا نرى سمير عبد الباقي يسعى إلى الارتقاء بالفصحى من خلال أزجاله وخاصة رباعياته أو خماسياته، وسوف اكتفى لضيق المجال بخماسية أخرى تؤكد على الحلم والأمل والمقاومة.

- يا ما نفسي لو انزل تانى غيط القمح المحصود
- وألم بواقي السبل اللي ف حكم المفقود
- أجمعه وأحمصه.. وأدرى منه الحب
- وأزرعه تانى يزهر فى الأرض الأمل الموعود
- ...يا تجار اليأس اخجلوا.. ما زال للحلم وجود!

نعم، يجب أن يخجل تجار اليأس، وتجار الكلمة فى عصر يفرض المقاومة.. وتحية لصاحب قلم لم يتاجر به!

*** ***

ثانياً: سرديات

- روايــة الغــرق
- السقف والناب الأزرق
- رواية عن الحرب والفساد
- مسرحية "المضحكة "
- مؤتمر للسرديات
- زيارات الدهشة
- مجموعتان قصصيتان
- "شاعر يكتب القصة"
- السيرة الذاتية

رواية الغــرق

رواية الغرق هي الرواية الأولى للأديب الكبير يوسف الشـارونى، أصـدرها مع وصوله إلى مشارف الثمانين من العمر، بعد أن ظـل مخلصـاً طـوال نصـف قـرن للقصة القصيرة، والدراسات الأدبية.

وقد وصف روايته بأنها "تحقيق روائـي"، ضـارباً المثـل فى التواضـع خلقيـاً وأدبياً، ومؤكداً على شكل مبتكر لما يعرف بالرواية التسجيلية، ولكنـه شـكل يحقـق متعة القراءة وجماليات البناء الروائي، وجماليات المضمون الروائي أيضاً.

وتتنـاول روايـة "الغــرق" حـادث العبـارة "سـالم اكسـبريس" فى أوائـل التسعينيّات التي اصطدمت بالشعب المرجانية، وهى تستعد لدخول مينـاء سـفاجا قادمة من جدة، وعلى متنها نحو خمسمائة راكب غرقوا أو فُقدوا إلا أقل مـن مـائتي شخص أتيح لهم البقاء والنجاة بعد مكابدات مع الأمواج والبرد والعذاب انتهـت بإنقاذهم.

ويسمى الكاتب السفينة أو العبارة "الغارقة" "المحروسـة"، وهـو اسـم لـه دلالة قريبة وأخرى بعيدة، لا تخفيان على القارئ، ويفتتح الرواية بالعبارة الآتية نقلاً عن المعاجم اللغويـة:"غـرق يغـرق فهـو غـارق وهـو غريـق. وغرقـت السـفينة، فاغرورقت عيناه بالدموع على أحبائه الغارقين"، وتكرار لفظة "غـرق" ومشـتقاتها على هذا النحو الذي ينتهي باغرورواق العينين دمعا على الأحباب الذين غرقـوا، لـه معناه المأساوي الذي يلخص مأساة الإنسان المصـري في زمن، لم يعد فيه إلا الغرق المادي أو الغرق المعنوي، وكلاهما يذهب به إلى مجاهل الحزن والأسى والقهر المقيم.

فقرات الرواية، لها عناوين تشبه عناوين التقارير الصحفية، ترصـد جوانـب المأساة التي جرت للعبارة "المحروسة" فى رحلتهـا مـن "جـدة" إلى "السـويس".. وتبدو هذه العناوين والفقرات محايدة وهى تشير إلى دلالات واقعية وأخبار حقيقية حول ما جرى وكـان، مـع إضـاءة تاريخيـة للأمـاكن الروائيـة (العبـارة- الشـعب

المرجانية–ميناء سفاجا– ميناء جدة– طرق السير البحري..)، وأيضا إضاءة لتاريخ الشخصيات المعنيّة بالحدث (القبطان– أسرته– صاحب العبارة– الغرق – الناجون– المفقودون– أهل نجع الجديان– سكان القرى المنكوبة بفقد ذويها– المسئولون–...)

وتركز الرواية على الأحداث التي صاحبت الغرق، وخاصة ما جرى فى الأيام الثلاثة الأولى، ثم تبدأ فى اجتياز مراحل زمنية أطول (أسبوع، أسبوعان، أسابيع، شهران، خمسة شهور، تسعة أشهر) حتى تنتهي بمجموعة حقائق، أهمها الحقيقة الأخيرة التي تشير إلى أن كل التحقيقات التي ستجرى– مع عظيم الاحترام لكل الخبراء لا تكشف "الحقيقة" الغارقة100٪، فالوحيد الذي يعلم الحقيقة هو الله أولا، ثم الربان الراحل ثانياً، ثم لا أحد بعد ذلك، كل ما دون الحقيقة الكاملة مجرد اجتهادات لا ترقى إلى مستوى الحقيقة التي يتم على أساسها العقاب والثواب!

إن يوسف الشارونى لا يسجل وقائع حادثة جرت ذات مساء فى ديسمبر 1990، ولكنه يغوص فى أعماق الواقع المصري، ليرصد مأساة المصريين وامتهانهم وعذابهم فى ظل مفارقات صارخة تؤكد على فقدان العدل والكرامة والجدية.. إن الرواية تتجاوز العبّارة "السفينة"، إلى "العبّارة" الوطن، وما يجرى على ظهرها من حياة بائسة، وضياع للإنسان المصري، وأنانية مفرطة غالباً، وشجاعة نادرة أحياناً،ولوعة تدفع بالشباب وغيرهم إلى عبور البحار والمحيطات من أجل لقمة مغموسة بالذل والمهانة والدموع، وفرقة الأهل والأصدقاء والأحباب.

اقرأ فى الرواية تصويرها لصاحب العبارة الحاج محروس (تأمل دلالة الاسم)، وجشعه الذي يجعله لا يهتم بصيانتها، ولا يعبأ بمن فيها، قدر اهتمامه بتوفير الوقت، ليحقق المزيد من الأرباح، ومع ذلك يدعى أنه يملك كل الأوراق التي تثبت صيانته للعبارة، وعنايته بها، وتوفير ما يلزمها، والإغداق على طاقمها، وبعد ذلك، فقد دفع التعويضات اللازمة وزيادة للضحايا، ويعد نفسه يا للمفارقة

الضحية الأولى، لأنه فقد "عبارته" التي تساوى أموالاً كثيرة، وفقد سمعته وانهارت شركته.. ومع ذلك، فهو سوف يبدأ من جديد، ويبنى عبارة جديدة، ويثبت وجوده مرة أخرى!.

وفى المقابل، طالع تصوير الرواية للضحايا البائسين، وهم يدورون على أبواب المصالح الحكومية لصرف التعويضات أو إثبات الفقد، أو استخراج الشهادات المختلفة، وبعد تسعة أشهر لم يأخذوا مليماً واحداً، ونسى الناس أحزانهم، مع كوارث جديدة حطت على الوطن..

لقد كان "الشارونى" بارعاً، وهو يصور الاستجواب الذي تقدم به أحد النواب فى البرلمان، من خلال المفارقات التي تؤكد على الاستهتار بالإنسان المصري، وانخفاض قيمته، وضياعه.. وتحول المستجوب إلى متهم أمام الحكومة (الصالحة) والأغلبية الكاسحة، التي تقرر الانتقال إلى جدول الأعمال!

قد يبحث القارئ مدفوعاً بما قاله الشارونى على غلاف الرواية، عن التقرير الروائي، ولكنه لن يجد هذا التقرير، ولا لغة الصحافة المفترضة فى التقارير، لأن الرجل من جيل يعرف قيمة اللغة الفنية وكيفية استخدامها بطريقة أدبية مبدعة. لقد وظف الشارونى ثروته اللغوية فى أسلوب بسيط، ولكنه قوى، بعيد عن الركاكة واللحن والضعف الذي يُصمينا ممن يكتبون هذه الأيام أو من بعضهم تحديداً، ولا يملكون فضيلة التواضع التي يملكها الكاتب، وأشرت إليها فى بداية الكلام.. إنه يقدم درساً لمن أهملوا النحو والصرف والبلاغة، بحكم استهانتهم بالأداة الأولى للفنون الأدبية، وراحوا فى غطرسة واستعلاء يزعمون امتلاك الحساسية والشعرية والعصرية فى كتاباتهم الرديئة. لاشك أن هناك كتاباً يملكون ناصية اللغة وعياً وتطبيقاً وأعمالهم جيدة، ولكن الغالبية العظمى اليوم تتنكر للمنهج السليم قصوراً وادعاءً.. لذا تأتى لغة الشارونى البسيطة المحكمة الناضجة لتقدم هذا الدرس، وتؤكد على أنه لا يصح إلا الصحيح.

يبقى أن هذه الرواية يمكن أن تندرج فيما سـميته قبـل ثلاثـين عامـاً أو يزيـد "أدب النبوءة"، وهو الأدب الذي يستشعر المستقبل، وينبه إليه، ويستحث العـزائم لتفادى الكوارث والمحن، وقد كانت "الغرق" إنذاراً لمن يعنيهم الأمر، ولكـنهم لم يأخذوا به، فكانت كارثة العبارة "السلام 98" التي أودت بأكثر مـن ألـف بـائس، ولوّعت أكثر من ثلاثمائة مسكين، وتمر هذه الأيام عند كتابة هـذه السـطور ذاكرهـا الثانية، دون أن يعرف الناس الحقيقة (التي يعرفونهـا)، ودون أن يحاسـب صـاحب العبارة، ودون أن يتأكد الناس أن الكارثة لن تتكرر.. ولله فى خلقه شئون!

***   ***

السقف والناب الأزرق

يرسخ "فؤاد قنديل" قدمه في مجال الفن القصصي ـ عامة والروائي خاصة، وذلك بابتكار الفكرة التي تشد وتجذب الانتباه، مع تجويد الأداء الفني والصياغة السردية، ويقدم دليلاً على ذلك في روايتيه القصيرتين السقف والناب الأزرق، حيث يطرح من خلالهما صورتين روائيتين جديدتين، فيحرك المخيلة لدى المتلقي للتفسير والتأويل.

في رواية "السقف" نعيش مع أسرة صغيرة مكونة من الأب والأم والأولاد الذين يعيشون في بيت عريق يشير إلى عز قديم وأسرة ضاربة الجذور في الأرض،ولكن رب العائلة يصحو ذات ليلة على صوت ارتطام عنيف، يظنه في البداية بفعل قطة أسقطت شيئاً من محتويات المطبخ على الأرض، ولكن الأصوات تتوالى، ويكتشف في النهاية أن زجاجاً قد تكسر، وأن الأبواب لم يعد من السهل فتحها لأنها شدت إلى الحلوق وأن العتبات انخفضت عن موقعها فوق الأرض، وبعد استشارة الأصدقاء والشكوى إلى مجلس المدينة يكتشف رب الأسرة أن البيت يهبط بمعدل ثابت، لأن الأرض تحته تهبط بانتظام أيضاً. وفى الوقت الذي يفكر فيه المهندسون والفنيون في حل للمنزل الذي قارب سقفه الأرض على مدى عام وأكثر حتى صار سكانه يدخلون إليه شبه زاحفين،نطالع صوراً شتى للبيروقراطية التي تواجه الموقف، وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد، وإن كانت بعض الأصوات المثالية تسعى إلى المعالجة عن طريق اجتهاد فردى تكون نتيجته غير ذات جدوى، والمحاولة في ذاتها شيء جميل يحسب لأصحابها في خضم عدم المبالاة.. فقد حاول أحد المهندسين أن يوقف هبوط السقف عن طريق حمالات حديدية أسطوانية، ولكنها غاصت مع السقف، ولم تجد نفعاً. وهناك محاولة أخرى ينفذها أو يشير بها أحد أقارب الأسرة المبعوث إلى كاليفورنيا في الولايات المتحدة لدراسة الهندسة،وتتمثل في ترك السقف يهبط حتى يصل إلى الأرض، ثم يبنى فوقه بوصفة

أرضية جديدة للمنزل العريق الذي يطل على النيل؛ ولكن المفاجأة جاءت من جانب السقف الذي اقترب من الأرض وتوقف هبوطه تماماً!

أما رواية الناب الأزرق" فتقدم صورة روائية جديدة أخرى من خلال أرملة سمينة يطمع فيها شخص منحرف ويلح عليها ليتزوجها بزعم أنه سيعوضها عن فقد زوجها الذي رحل، وكانت تحبه حباً جماً، وترك لها ولدين يستلم كل منهما أحد ثدييها، ويستمر في الرضاعة حتى يشبع، وقد بلغ أحدهما السادسة والآخر الرابعة وما زالا يرضعان. وبعد زواج أمهما حرم الزوج الثديين عليهما، اختص بهما نفسه، ولكن الولدين يلجآن إلى صدر أمهما ويضع كل منهما فمه على جزء من الصدر تحت الثدي فينبت فيه ثدي جديد يرويه، وعندما تنجب توءماً يتخلى ولداها للتوءم عن مكانهما ويهبطان إلى فخذي أمهما، فينبت فيهما ثديان جديدان، ويستأثر الزوج بالثديين الأصليين... ثم يفكر في فكرة شيطانية لاستثمار اللبن الذي يفرزه الثديان بغزارة، فيقدمه أولا لزملائه الأشقياء الذين يستضيفهم، والسيدة السمينة تبدو مستسلمة لا تملك من أمرها شيئاً، ثم يسعى ثانياً بمعاونة بعض الأجانب إلى فتح مصنع ألبان يوزع في جميع أنحاء المدينة، يقوم على استثمار لبن زوجته عن طريق خراطيم تصل ما بين أثدائها الأصلية والمستجدة، ومصنع تعبئة الألبان الذي أقامه مع شركائه أسفل الشقة التي يسكن فيها. ويقبل الناس على شراء منتجات المصنع،السيد السمينة ذات الأثداء تبدو مستسلمة لمصيرها وقدرها، حتى بدت في وقت من الأوقات شبه فاقدة للوعي، لا تدرى بمن حولها. كان الزوج قد طرد الأولاد، أولاد الزوجة وأولاده منها معاً؛ خارج البيت، بعد أن أوقفهم عن إكمال تعليمهم الجامعي، وطلب منهم أن يبتعدوا عن الأسرة وعن أمهم خاصة، ولكن الأولاد حين يرون ما جرى لأمهم يسعون إلى تخليصها من قبضته بوصف ما يقوم به من الأعمال المشينة، وتتعدد محاولاتهم الفاشلة التي يقابلها تشديد قبضة الزوج على الأم ووضعها في قفص من حديد، وتسييج النوافذ والأبواب بالحديد أيضا، حتى لا يدخل إليها أحد، ولكنهم في النهاية ينجحون في تخليصها والفرار بها من

هذا الزوج الملعون، الذي نراه مثل أي أفاق لئيم- في أكثر مـن صـورة : سمسـاراً، بواباً، نصاباً، خـادم سـيدة،... ثـم رجـل أعـمال (!) يـرطن بـبعض المصـطلحات الأجنبية!

فى الصورتين الروائيتين المبتكـرتين نـرى مسـتويين للدلالـة المسـتوى الأول القريب الذي نطالعه ونستمتع به بوصـفه حـدثاً مثـيراً يشـوقنا إلى متابعـة مصـيره ونهايته، حيث نتطلع في الصورة الأولى إلى معرفة متى يتوقف السقف عن الهبـوط، فوق الأرض أو تحتها، وما يترتب على ذلك بالنسـبة لـلأسرة التـي فقـدت سـكنها وانتقلت إلى الحديقة، ولا تعرف إلى أين المفـر؟ وفى الصـورة الثانيـة نتـابع بشـغف مصير الأم السمينة ذات الأثداء المتعددة التي تقع أسـيرة زوج ظـالم لا حـد لخسـته وانتهازيته، وتفقد أبناءها بالبعد عنهم أو يفتقدونها حناناً وعطفاً ورحمة!

المستوى الآخـر العميـق يتمثـل في تأويـل رمـز السـقف أو الأم مـن حيـث الإسقاط على الواقع المعاصر الذي يمثّل محنة عامة لا نهاية لها، وفساداً فاجراً لا يعبأ بأية قيمة من القيم، وتشقى الأمة في معالجته أو القضاء عليه. ولا ريب أن الرمـز في الروايتين لا يخفى على القارئ الذي لديـه حـد أدنـى مـن الإلمـام بأصـول القـراءة الصحيحة.

أصالة فؤاد قنديل تتبدى في تلك الإضافة الحقيقة التي لا تجعله تكراراً لغيره، أو صدى، فهو يجتهد في التعبير عن قضايا الأمة الكبرى، ولا تشغله تلك التقليعات الخائبة التي تزعم النضال (على الورق طبعاً) أو في مجالات هامشية بعيدة عن اهتمام الجموع الغفيرة المشوقة إلى الحرية، والعدل، واسـتقامة البنـاء الإنسـاني عـلى أرض المجتمع. أضف إلى ذلك اهتمامه باللغة أداة توصيل جيدة، يحتشد لها باختيار اللفظة والجملة والعبارة، ويتوسل بها للاتصال بالقارئ عـن طريـق الحـوار الحـيّ المكتنـز الذي يكثف الدلالة المتعلقة بالأشـخاص أو المـاضي أو الحـاضر أو المسـتقبل، دون افتعال أو خطابية، ومن خلال حرص واضح على سـلامة الأبنيـة والتراكيـب مـن الأخطاء الشائعة، التي يقع فيها كثير من الكتاب.

رواية عن الحرب والفساد

هذه هي الرواية الأولى لمحمود عرفات، سماها "مقام الصبا" تعبيراً عن جيشان العاطفة وفوران الشعور تجاه ما جرى ويجرى من حوله في العقود الأخيرة، ولأنه واحد من جيل الهزيمة التي وقعت في عام 1967، فقد سجل ما يمكن أن يكون سيرة ذاتية له ولجيله، وعبر عن واقع شهد أعلى صور التضحية والبطولة والفداء في حرب الاستنزاف ثم حرب رمضان، كما شهد أسوأ صور الفساد الداخلي حيث لم يستطع الذين انتصروا على جبهة القناة؛ أن ينتصروا على جبهة الفساد!

والرواية منذ الإهداء تحمل التزاماً ملحوظاً في سلوك الكاتب وتفكيره تجاه الآخرين بدءاً من والديه اللذين يهدى إليهما روايته، حتى ذلك الوطن الذي ضحى من أجله، ويبكى على ما يجرى داخله من مفارقات محزنة ومؤسفة، تتعلق بالعمل والإنتاج والإدارة والمال العام.

تجرى أحداث الرواية أو معظمها في مدينة صغيرة بدلتا النيل اسمها "كفر الزيات"، وهى تمثل مجتمعاً ريفياً، مع أن مداخن العديد من المصانع ترتفع في سمائها، فما زال أهلها يحتفظون بسمات الريف، ويعرف بعضهم بعضاً، ويتضامنون في الأحزان والأفراح. ومن خلال نماذج بشرية بسيطة يقدم لنا المؤلف هذا المجتمع الريفي (الصناعي)، ويجعل دكان ترزي متواضعاً مركزاً أو بؤرة للأحداث، حيث يلتقي في الدكان نفر من الأصدقاء يقودهم "حمدي" الترزي في الأمسيات التي يلتفون فيها حوله، وتتكشف من خلال علاقاتهم ومشكلاتهم قضايا عديدة خاصة وعامة.

وعبر بناء الرواية الذي يقوم على فصول معنونة بعناوين شعرية (قبل البدء- المبتدأ- على الأعراف – الموت خوفاً- شغل منجدين- المكتب الفني- الذي مات – قارورة العطر...الخ) نتعرف على شخصيات الرواية، وفى مقدمتها الشخصية

الأساسية (عمارة) الشاب الذي شارك في حربي الاستنزاف والعبور، وعاد إلى الحياة المدنيـة ليقـدم خطـاب تعيينـه في إحـدى الشـركات الحكوميـة مهندسـاً في قسـم الصيانة،فيكتشف المفارقة الكبيرة بين حياة الجيش المنضبطة التـي حققـت العبـور، وحياة العمل المدنية التي يشوبها الترهل والفساد والبيروقراطية والتحايل على نهب أموال الدولة بشتى الطرق. وتصنع الرواية معادلاً لهذا الواقع من خـلال شخصـية "فايزة"- شقيقه "السيد ماضي" أحد أصدقاء عمارة- وهى فتاة جميلة مشرقة تسلب العقل وتستولي على الوجدان،ولكنها للأسف مصابة بالعرج نتيجة شلل الأطفـال، مع أن البطل أراد أن يتزوجها في شكلها هذا، فإنها تصاب بمرض يودى بها، وهـي تبتسم ابتسامة طيبة صافية! كأن الرواية أرادت أن تشير إلى الإحباط وفقدان الأمـل في إصلاح الفساد القائم، وأن كل الأحلام الجميلـة تجـاه الإصـلاح محكـوم عليهـا بالإخفاق والموت!

إن سوداوية الرؤية في الرواية تنطلق من واقع حقيقي قائم، وكان المأمول من "مقاتل" في حرب ظافرة بكل المقاييس، مهما كانت النتائج أن تكون هنالك مقاومة للفساد مهما طغى وبغى، وأن يكون هنالك أمل في جيل جديد يكنس حطام الواقع البائس ويصنع واقعاً جديداً يقوم على الحق والعدل والعلم والعمل الجـاد الـذي لا يتوقف، وهو ما يتبدى في سـلوك بعـض الشخصـيات الروائيـة في ظـل الظـروف الصعبة التي يعيشها الناس. فحمدي الترزي الذي سحقت حرفته هجمـة الإنتـاج الجاهز، وجعلت زبائنه قليلين للغاية، مـا زال حريصـاً عـلى الإتقـان والتجويـد في صنعته، ولا يرضى أن يخيط ياقة قميص ما لم تعجبه هو، وإن أعجبت الزبون.

إن الرواية تقدم نماذجها البشرية البسيطة من خلال حياتها اليومية وما تعانيـه من مشكلات مزمنة مثل الحصول على الخبز، والوقوف في الطوابير،والصراع عـلى الرزق، والرغبة في امـتلاك مـا للغـير... وعـبر هـذه المشـكلات تتعـرض الروايـة للأحداث السياسية البارزة في فترة ما بعد العبـور مـع رصـد المفارقـات السياسـية

والاجتماعية مثل الحديث عن أزمة القمح والديمقراطية وكرة القدم وهوس الصراع بين الأندية الرياضية.

وتحمل الرواية أسلوباً بسيطا ينحاز إلى الفصحى القريبة التداول بصفة عامة، كما يحمل في ثناياه حنيناً إلى الأيام الجميلة والقيم العليا عبر السرد والحوار والتصوير الفني والتضمين، وغيرها من وسائل البناء الروائي.

تأمل حنين البطل إلى الماضي والمكان القديم حين يقول :"كنت أزداد اقتراباً من المنازل وأبواب الزرائب العالية وروث البهائم المختلط بتراب الشوارع والمصاطب الملتصقة بجدران البيوت، ورائحة الخبيز تهب من الأفران البلدية داخل أحواش المنازل، وروائح الطبيخ تهب من الكوانين مع اقتراب المساء، وقوافل الدواب والحمير العائدة من الغيطان تسير محملة بخيرات الله، فتقف أمام بابها تدق برأسها لينفتح، طفت بدروب بلدتي فأحببتها، أحببت النوافذ الواطئة، وأكوام القش، والحطب المطل من سطوح المنازل، والمقاعد البغددلى تعلو الأسطح، و"البنيات" في صالات البيوت الطينية تغص بالحمام يذكر الله صباح مساء..." وهناك من الصور الجميلة المبتكرة ما يحسب للكاتب مثل قوله :"احتوتني عيناها حتى كدت أشعر بضلوعي تئن تحت ضغطها.." ،أو قوله :"أغمضت عيني من فرط الوهج والصهد.."، ويلاحظ أن الرواية تستعين بالموال فتضمنه بعض المواضع ليتوازى مع طبيعة الأحداث، مثل تضمينه بموال "شفيق جلال" المشهور حول الصبر ودلالته في وجدان الطبقات الشعبية:"أنا بعلّم الصبر يصبر على صبر حبيب جارنا/ إن كان غيرنا حلى وإحنا اللي مررنا". وكنت أتمنى لو أن الرواية سجلت الموال جميعه ليحقق الدلالة كاملة. ومع أن الرواية تحمل بعض السلبيات اللغوية والفنية، فإن "مقام الصبا" تبشر بمولد روائي يملك التلقائية في عملية الحكى والقص لدرجة تشعرك أنه يحكى بفطرته دون أدنى افتعال، ولعله في الرواية التالية يقدم لنا عملاً آخر يفوق هذا العمل.

*** ***

مسرحية "المضحكة"

مؤلف هذه المسرحية شاب واعد في مجال الكتابة المسرحية من منظور التصور الإسلامي الناضج، وسبق له أن كتب مجموعة من المسرحيات، منها: محروس طالع القمر، حورية بني كنعان (مجموعة ذات فصل واحد)، حلاق بغداد الجديد، كما ألف كتاباً حول المسرح المدرسي. وهو بعد ذلك وقبله قارئ جيد ومثابر، قرأ التراث المسرحي القديم والجديد، بالإضافة إلى قراءاته الأخرى في مجالات القصة والشعر والفكر بوجه عام.

وفى هذه المسرحية "المضحكة" رؤية ترصد المفارقة بين واقع الناس في إحدى القرى المصرية وأفكار ابن العمدة الذي ذهب في بعثة إلى أميركا، وعاد برفقته صديق أميركي، ويسعيان إلى تنفيذ مشروع غريب يجعل الناس يضحكون، ومن أجل الضحك يستولى الابن (الذي أخفق في بعثته) مع الأميركي الذي يبدو يهودياً صهيونياً، على مضيفة القرية الموقوفة للمناسبات الاجتماعية المختلفة..

في السياق نتعرف على الخداع أو المكر الذي يمارسه الأميركي، وهو يحول الناس عن عاداتهم وأخلاقهم نظير دولارات كثيرة، حين يوافقون على أفكاره وتصوراته، ويكتشفون في النهاية أنه لا توجد دولارات "ولا يحزنون"، فضلاً عن تفاهة المشروع الذي اخترعه ودعا إليه وزعم أنه سيطور القرية وأهلها، فلم يحدُث لهم تطور ولم يكسبوا شيئاً، بل خسروا مضيفتهم وكرامتهم معاً!

وفق الكاتب "على الغريب" في عرض مسرحيته على أرض القرية المصرية، فالبيئة القروية تظهر فيها الأحداث أو الأفكار غير المألوفة بوضوح،وتنعكس على أفراد المجتمع الريفي بطريقة ساطعة وسريعة، وبصورة مغايرة لما يحدث في مجتمع المدينة الذي يبدو متخماً بالتغيرات والزحام، فلا تتكشف فيه المستحدثات تكشفاً دقيقاً.

والقرية التي نراها في مسرحية "المضحكة" تعيش في أيامنا، حيث تفرض الولايات المتحدة وجودها الاستعماري المدجج بقوة السلاح والخديعة والتقنية على العالم العربي والإسلامي خاصة، فضلاً عن العالم بأسره. بمعنى آخر فالقرية هنا عصرية قريبة مما يجرى ومتأثرة به، وهى في الوقت ذاته مظلومة، تقع تحت تأثير القوانين الظالمة والسلوك البيروقراطي، والفلاح كاهله مثقل بالديون والفوائد، وموظف الجمعية الزراعية لا يعنيه ما يجرى للفلاح بقدر ما يهمه تنفيذ اللوائح والتعليمات ولو كانت ظالمة صريحة الظلم.

ومن ثم، فإن شخصيات "المضحكة" نبت طبيعي لهذه البيئة الزمنية والمكانية، متأثرون بها حتى النخاع، ومع ذلك، فهم يواصلون الحياة ويحلمون بالمستقبل، ويتطورون، ويتعرضون للالتباس الذي تصنعه البيئة حيث اختلطت المفاهيم والرؤى، وازدهر المكر والخداع، ولكنهم في النهاية يستشعرون الخطر الذي يتهددهم ويحدق بهم.

قرية "كفر أبو وزة" إحدى القرى المصرية لها عمد اسمه "الحاج عبد الراضي وهدان" في الخامس والستين، يبدو رجلاً طيباً، يهتم بشئون القرية في حدود طاقته، ويحل مشكلاتها بطريقته الريفية، أرسل ابنه "نديم" إلى أميركا ليدرس ويتعلم ويحصل على الدكتوراه في الفلسفة وعلم النفس، ولكنه خيب ظن أبيه، فلم يحصل على الدكتوراه، ولم ينجز شيئاً، وعاد إلى قريته بصحبة الدكتور "مايكل وايزمان" الذي يخدع العمدة والقرية بإقامة مشروع "المضحكة" في القرية، حيث يتعلم الناس الضحك كي تتحقق لهم الصحة النفسية السليمة، نظير أن يغيروا عاداتهم وطبائعهم (ثقافتهم)، وتسليمه المضيفة الموقوفة للأهالي لاستخدامها في مناسباتهم، مع وعد بتدفق الدولارات عليهم!

هناك فلاح شاب، اسمه (زارع) وزوجه (خضرة) ابنة شقيق العمدة التي تتعلم القراءة والكتابة في محو الأمية، وتقرأ الجريدة اليومية، وتتفوق على الفلاح

(مغاورى) الذي يبدو رافضاً للعلم والثقافة، ويسعى إلى المال، ولا يفكر بصورة واعية؛ و"أنيس" المدرس اليساري الانتهازي الذي يقرض شعراً غامضاً، ويؤيد المشروع!

يتزعم (زارع) معارضة المشروع الذي يتبناه ابن العمدة (نديم) والأميركي (وايزمان)، يؤيده إمام المسجد وخطيبه الشيخ إمام، الأزهري الذى يبلغ من العمر الخامسة والأربعين، والطالب (مهدي) الذي يدرس الحقوق.

المفارقة أن الزوجة (خضرة) التي تبدو الأحداث، وكأنها ترشحها لتكون عنصر معارضة لمشروع "المضحكة" بحكم ثقافتها ووعيها، تقف في صف المشروع، أو تسعى للنأي بزوجها عن معارضته بحجة البعد عن "وجع الدماغ" ! مما يترتب عليه أن تقع في مشكل عويصة مع زوجها حيث يصر على تطليقها، لأنها ذهبت بحسن نية إلى عمها "العمدة" الذي كان يتدرب في "المضحكة"، لتستنجد به من أجل إطلاق سراح (زارع) المقبوض عليه في الشرطة، لمعارضته المشروع، ولكن (زارع) يظن أنها ذهبت لتنضم إلى المشروع ورضيت أن يراقصها رجل أجنبي!!

الألاعيب والحيل التي صنعها "وايزمان" بمساعدة "نديم" تكشف شخصيتهما الخادعة الماكرة، وبفضل "زارع" و"الإمام" والطالب "مهدي" تتغير الأحداث وتظهر الحقيقة، فيعدل العمدة عن تأييد المشروع ويتبعه الناس، وتعود المضيفة للأهالي، ويضطر "وايزمان" وبالتالي "نديم" إلى مغادرة القرية والعودة إلى أميركا بعد أن أخفقا في تحقيق المشروع.. ويتصالح "زارع" و"خضرة" بعد استيعاب التجربة والدرس.

لا ريب أن الشخصيات التي نراها في "المضحكة" تتمتع بالحيوية والثراء الذهني، وتنبئ عن طبيعة ريفية تجمع تناقضات متعددة، ولكنها في النهاية أسيرة لواقع ظالم ومعقد وبعيد عن الإنصاف، وهو واقع يستغله الأجانب من أجل الاستلاب الروحي والثقافي والاقتصادي تحت دعاوى كاذبة مزيفة.

يعتمد الكاتب في مسرحيته على الفصحى المبسطة التي يمكن تداولها على لسان الفلاحين البسطاء، كما يمكنهم فهمها واستيعابها بسهولة. ولاشك أن الكاتب يطمح إلى إخراج المسرحية بهذه اللغة، انطلاقاً من اعتماد الفصحى أساساً للبناء الفني بما يتكامل مع رؤيته الفكرية التي تهدف إلى تأسيس مسرح إسلامي التصور ؛ يخاطب جميع الناطقين بالعربية أو الذين يفهمونها ويتكلمون بها في شتى أنحاء الأرض. وهو ما يميزه عن بعض كتاب المسرح الذين كتبوا بالفصحى الراقية أو السهلة، وقبلوا في نهاية الأمر أن تتحول مسرحياتهم من الفصحى إلى العامية.

إن "على الغريب" بمسرحيته "المضحكة" ومسرحياته الأخرى يسد فراغاً في مجال المسرح الإسلامي، أو المسرح المكتوب بتصور إسلامي، حيث يندر أن نجد أدباء إسلاميين يهتمون بالكتابة للمسرح، بل يندر أن نجد منهم من يهتمون بالفنون السردية بصفة عامة، وهو ما يوجب علينا الحفاوة بهذا الكاتب الموهوب وما يكتبه.

*** ***

مؤتمر للسرديات

من واجبنا أن نشيد بأي عمل ناجح ولو كان صغيرا، فما بالك لو كان كبيرا؟ يجب ألا نحجب هذه الإشادة كي لا يضيع الخير بيننا، حتى لو تعرضنا لشيء من الإهمال والتقصير والتجاهل. لقد كنت الضيف الزائد عن الحاجة فى مؤتمر السرديات الذي أقامته كلية الآداب بجامعة قناة السويس فى الإسماعيلية (29-31 مارس 2008م)..

ألح على الزميل الصديق الذي يقود الإعداد للمؤتمر من أجل الحضور والمشاركة، ولو برئاسة جلسة علمية، تحاملت على نفسي ومتاعبي الصحية،وذهبت إلى الإسماعيلية فى رحلة استغرقت ست ساعات تقريباً ما بين السيارة والقطار، وفوجئت باسمي لا وجود له فى أوراق المؤتمر، ولكن الزملاء الذين يقومون على تنظيم المؤتمر كانوا كرماء، رحبوا بى وبالزميل الذي كنت أرافقه،ترحيبا طيبا فى الضيافة والاستقبال.،وفى القربة الأوليمبية التي كانت مقرّا للضيوف وأعمال المؤتمر تقابلنا مع رئيس الجامعة، ويبدو شاباً فى أواخر الأربعينيات أو أوائل الخمسينيات تقريباً، يتمتع بحيوية ملحوظة ونشاط واضح ورغبة قوية فى العمل، وفى جلسة عشاء خفيف كما يسمونه، وثقيل كما أراه- لأنه يتكون من الفول المدمس والأجبان والمخللات والزبادي- كان حوار ممتد وطويل استغرق نحو الساعتين، مع طراز مختلف من رؤساء جامعات مصر، مع احترامنا لهم جميعا بوصفهم زملاء فضلاء، رجل بسيط متواضع مترفع، يؤكد ذاته من خلال المجالس المتخصصة فى الجامعة؛ حيث يغلب المصلحة العامة على المصلحة الفردية، ويشارك هيئة التدريس وطاقم الإدارة فى الكليات قضايا العمل اليومي، والقضايا المطروحة للمستقبل. كان يتابع بنفسه وصول الأبحاث الخاصة بالمؤتمر وتحكيمها، ويذلل العقبات فى سبيل إخراج مؤتمر الجامعة على أحسن صورة ممكنة، وهو ما تمخض عن وصول أو مشاركة تسعين بحثاً تقريباً،تنوعت فى مجال السرديات ما بين الرواية والقصة والتاريخ

والأسطورة والسيرة الشعبية والقصص الشعري، فضلاً عن القصص القرآني والنبوي.

أعود إلى حواري مع رئيس جامعة قناة السويس الذي شرق وغرب حول فكرة واحدة هي : كيف ينهض الوطن ويتجاوز عثراته، وكان هناك شبه اتفاق بين الحاضرين حول القضايا الأساسية، ولكن لسان الحال يقول: العين بصيرة واليد قصيرة.. ومع هذا فإمكانية أن يتحرك الناس للعمل والبناء ومكافحة القبح والفساد قائمة.. وأذكر أنى ضربت لهم مثلا بقريتي التي أعيش فيها ؛ حيث تعاون أهلها لتنظيفها وتشجيرها وتنسيقها لتكون قرية نموذجية أو قرية جيدة على الأقل، وقد حققت كثيراً مما أرادت بفضل الله أولا، ثم تعاون أهل القرية ثانيا ومعهم الإدارات المختصة، وكان للمرأة دور عظيم فى تنشيط العمل التطوعي والحث عليه؛ فضلا عن المشاركة الشبابية الفعالة، حتى صارت القرى المجاورة تحسدنا على ما فعلناه ووصلنا إليه، وتحاول أن تقلدنا.

حدثني رئيس الجامعة عن تجربة فى قلب سيناء تقوم عليها كلية الزراعة بتدريب الطلاب على العمل فى منطقة واسعة بهدف التوطين والإنتاج، ثم إقامة بعض المعاهد أو الكليات فى منطقة نخل تابعة للجامعة كي يمتد العمران إلى هذه القطعة الغالية من أرض الفيروز والشرف والكرامة، بعد أن رويت بالدماء الزكية على مدى حقب التاريخ.. واستعدت فى ذاكرتي أيام الهزيمة والانتصار وكنت مجندا لمدة ست سنوات وأسر عساف ياجوري، وتدمير دباباته والاستيلاء على ما تبقى منها بعد استسلامه فى مشهد عظيم لا ينساه التاريخ! سيناء حبة القلب والعين يطمع فيها الأعداء والمتربصون واللصوص، لأنها كنز ثمين وغال، وتحتاج إلى الحماية والرعاية والعمل. لعل الجامعة هناك تقود الرحلة إلى الأمل.

اهتمام رئيس جامعة السويس ذكرني ببعض رؤساء الجامعات الآخرين على الجانب المقابل الذين يظنون المنصب تشريفا وفرصة ذهبية لإثبات الوجود

وممارسة النرجسية الفرعونية؛ أذكر أن أحدهم يسير وراء مدرس فى إحدى الكليات التابعة له، لأنه فى الوقت نفسه نائب بمجلس الشعب،ويستلهم منه الوحي والمشورة، مع أن هذا المدرس سطا؛ أي سرق تفسير الإمام القرطبي، واجتزأ منه كتابا يبيعه بمئات الألوف سنويا فى الكليات التي يدرس بها فى الجامعة السعيدة!، ولم يردعه ما نشرته الصحف وتحدث به الكتاب والركبان عن السرقة الفجة والفاقعة، فعاود بيع الكتاب اعتمادا على صديقه رئيس الجامعة الذي لم يعاتبه ولم يحاسبه، بل تشاور معه حول مواجهة "القلة الحاقدة" التي تعطل الأعمال العظيمة(!) وبدلا من أن يقولا للرأي العام الحقيقة "المرة"؛ آثرا هجاء "القلة الحاقدة" التي اكتشفت الفضيحة!.

تم افتتاح مؤتمر السرديات ووقائعه وفقا للجدول المعلن، ولأول مرة كما أظن جرت ترجمة فورية للكلمات الافتتاحية والوقائع التي اشتملت ضمن ما اشتملت عليه عرضا سينمائيا يؤرخ لكليات الجامعة ونشاطاتها ورؤسائها، وتكريم الباحثين الذين رأت لجان التحكيم أن أبحاثهم جيدة مما يدل على أن الأبحاث بصفة عامة كانت مخدومة، وحظيت بجهد بحثي حقيقي، على مدى مائتي يوم، استغرقها الإعداد للمؤتمر،لعل هذا يجعلنا نتوجه إلى وزارة الثقافة وأجهزتها المختلفة وفروعها فى الأقاليم وإن كانت لا تسمع لأحد! أن تتعلم من تجربة هذا المؤتمر الذي يكاد يكون قد موّل كثيراً من تكاليفه بنفسه من خلال اشتراكات الباحثين وتحملهم نفقات السفر. ليتها- أي وزارة الثقافة وامتداداتها- تكتفي بمؤتمر واحد جيد فى العام يتم الإعداد له فى العام السابق عليه، ويستغرق وقتا معقولاً ومناسباً، وتخضع أبحاثه لتقويم حقيقي، ويبرأ من هيمنة التيار الواحد المسيطر المتعجرف، أحادى النظرة والفكرة، ويستأثر بكل المؤتمرات.. من أجل حوار جاد بين مختلف التيارات والتوجهات التي يفترض أن تمثلها ثقافة قومية شاملة، وتمولها ضرائب مختلف الناس والطوائف.. أما أن يكون المؤتمر "مسلوقا"

ومختصا بفئة دون غيرها، وتذهب تكريماته وجوائزه إلى جماعة بعينها، مع إقصاء بقية الجماعات، فهذا أمر معيب يدل على فساد عظيم، وتخلف كبير فى المؤسسة الثقافية الرسمية، لأن شعوب الأرض تخلت عن الشمولية والأحادية، ولم تبق إلا نماذج قليلة تمثل وصمة عار فى جبين الإنسانية.

كان من فوائد المؤتمر لقاء أصدقاء عرب وأجانب، فضلاً عن مصريين لم يتح لي اللقاء بهم منذ زمان بعيد، وكان من المفارقات أن صديقا درعميا قديماً منذ فترتي الماجستير والدكتوراه قبل ثلاثين عاماً تقريباً، ذهبت إليه لأسلم عليه وأهنئه على كلمته التي ألقاها باسم الجامعات المصرية فى افتتاح المؤتمر، حيث كانت كلمة محكمة تناول فيها موقف غلاة الجامدين وغلاة المتعصبين للغرب بكل ما فيه، هذا الصديق نسى اسمي، ولم تسعفه شارة المؤتمر المعلقة على صدور الأعضاء بأسمائهم؛ فلم يجد على صدري شارة لأن القوم تجاهلوني.. فأحس بالحرج الذي أنقذه منه زحام الحاضرين وهم يتدافعون للخروج من قاعة الافتتاح إلى قاعة أخرى!

ولعل الفائدة الأهم من وجهة نظري تكمن في مشاركة الأجانب أو غير العرب وبعضهم جاء من الصين واليابان وماليزيا والهند وفرنسا وإسبانيا، وكل هؤلاء يحتفون بالعربية وآدابها، ويسعون للمشاركة فى بحث قضاياها، مما يعنى أن المؤتمرات الجامعية والثقافية مهمة للغاية، حين تنظم تنظيماً جاداً وحقيقياً، بعيداً عن المظاهرات الإعلامية الصاخبة التي تفيد فى تلميع البعض وتحية لمؤتمر كنت فيه ضيفاً زائداً عن الحاجة!

*** ***

زيارات الدهشة

من خلال متابعتي للغة الأدبية الراهنة ألاحظ أن هناك ترخصاً ملموساً فى الأداء اللغوي بصفة عامة يتجاوز أخطاء النحو والصرف إلى التراكيب والصياغة مما يعيدنا أحيانا إلى لغة القرن الثامن عشر بركاكتها وأثقالها وعسرها، وأحسب أن عملا أدبياً فيه نبض اللغة الحية وعرامة الأداء المتماسك؛ يمثل فرحة حقيقية لمتلقي الأدب وقارئ النصوص الجميلة..

والشاعر "محمد عفيفي مطر" يطل علينا بوجه الناثر الذي يسطع أداؤه اللغوي الحيّ في سيرته الذاتية المسماة "أوائل زيارات الدهشة هوامش التكوين"، ومن خلال نسخة عصرية منقحة، يعيدنا إلى مدرسة البيان فى النثر الحديث التي برز أعلامها للكبار: مصطفى لطفي المنفلوطي، مصطفى صادق الرافعي، عبد العزيز البشرى، أحمد حسن الزيات، محمد صادق عنبر، سيد قطب، محمد عبد الحليم عبد الله، محمود محمد شاكر، محمود فوزي (رئيس وزراء راحل) محمد حسنين هيكل.. وهذه المدرسة تعتني بالصياغة مثل اعتنائها بالمعنى والمضمون فتقدم أفكارها فى إطار موسيقى لغوى يرقى بالذائقة الأدبية ويؤسس للصفاء اللغوي؛ إن صح التعبير.

والسيرة الذاتية لمحمد عفيفي مطر موسيقى لغوية تصويرية تكشف عن وعى عميق باللغة إلى درجة التماهى مع مفرداتها وإيقاعها، مما ينتج صوراً شعرية فريدة؛ تحكى حياة القرية المصرية وعذابات الفلاح المصري في وقت ما، وفى شكل ما، وإن كانت العذابات ما زالت قائمة فى أوضاع مغايرة.

لو أردت أن أكتب سيرتي الذاتية لاكتفيت بما سجله محمد عفيفي مطر من مشاهد مشابهة إلى حد كبير، مع الفارق الذي يميز ريفيا عن آخر فى الطبيعة البشرية والمكان والزمان والعلاقات الخاصة. لقد سجل الكاتب لقطات تعبر عن مراحل متتابعة من حياته مذ كان طفلا حتى صار شيخاً تجاوز الستين (عبر الآن السبعين)

حرص من خلالها على تقديم صورة للمرأة فى الريف تكـاد تكـون واحـدة فى كـل القرى، إنها المرأة الأم التي تشقى بأولادها الذين لا يعيشون.. تلدهم ثم يرحلون.. ومن أجل أن يبقى أحدهم تفعل كل ما تتصور أنـه يبقـى طفلهـا حيـاً ، وكثـيرا مـا رأيت أما تذهب إلى أم أخرى ليكـون للطفـل أُمّـان. أم بالنسـب وأم بالانتخـاب، كلتاهما تتكفل برعايته وتتلهف عليه وتسعى إلى أن يكون فى أحضـانها حتـى يكـبر ويصير رجلا؛ وهو يعلـم أن أمـه الثانيـة مثـل أمـه الأولى، وواضـح أن الأم الأولى للكاتب عانت كثيراً فى حياتها وتعذبت بأشياء عديدة، لذا أهدى إليها سيرته الذاتية وهو إهداء من أجمل الإهداءات التي قرأتها في مفتتح الكتب بصفة عامة:

"إلى جليلة الجليلات سيدة أحمد أبو عمار. فـيض البركـة فى الـزمن الصـعب وبسالة الحنان الكريم فى عصف الشظف".

وفى السيرة الذاتية يأتي على ذكر الأم كثيرا؛ رمزاً للبركة والحنـان كـما ذكـر فى إهدائه، فى مقابل الأب الذي كان ظاهره يختلف عن باطنه، دون أن يعلم أحد بهـذه الحقيقة إلا بعد رحيله، وبعد أن كانـت نفـس الابـن تقشـعر هلعـا وامتعاضـاً مـن محاولات الأب للتقرب منه ومد جسور المودة والمصالحة. فقد كشف رحيله أنه كان أكبر منه ومن تفهمه بما لا يقاس، وأنه حبة رمل على قدمي جبل، مما دفعه إلى البكاء فى حسـرة وندم غاضبين :

"يا سيدي أما كان للفهم والتفاهم بيننا من سبيل؟ "ثم يخاطبه قائلا:" ويأيها الشهيد النبيل لمَ لمْ تؤاخني بقليل من مـودة التكاشـف حتـى أنصـفك مـن نفســي وأشرح من طواياى ما لم تكن تعرف؟ أما.. ؟!" .

لم يحتمل صاحب السيرة إحساسه بأن موت أبيـه كـان نبالـة شـهيد لم يعرفـه أحد، فأطبقت عليه رغبة لا تدفع، فترك القرية وترك البلاد كلهـا، لعلـه يولـد مـن عصف استشهاده الرمزي الغنى بالدلالات والقيم، فهـو اليتـيم الضـائع- ولـيس

أباه– بين أيتام الأمة الباحثين عن أبوة جماعية ترد عنهم يـتم الهـزائم والضـياع بـين الأمم!

بيد أن الأمومة تبقى هي الجذع والجذر الذي ينمـو عليـه الابـن ويتصـل بـه ويتحول الترتيل القرآني إلى أمومة."حينما كانت أمي تستعيد الاستماع إلى ما حفظته من قصار السور صعوداً إلى السور الطويلة ومن جزء عم إلى جزء تبارك وتصـحح بصوتها الرخيم ووجهها المضيء بالفرح؛ وعينيها المسبلتين المتبتلتين، ما أخطـئ فيـه كان الإيقاع الجليل بصفاته يشمل كل شيء، وكانت الدنيا تنتظم كأنها مسبحة أخاذة من الأصوات والانسجام المحكم".

فى اللقطات التي نطالعها في سيرة محمد عفيفي مطـر، رصـد لأوائـل الثـورة والتمرد على الظلم القائم والخطأ والخوف، وفيها صورة الريف القديم بكـل عنائـه وعذابه وأحزانه الكثيرة وأفراحه القليلـة، وفيهـا مفارقـات الفلاحـين والأقـارب والأباعد ونمط الحياة الباسلة الخشنة، والرضا الذي يشبه الاستسلام، والبحث عن الطريق القريب الذي يوفر لقمة العيش، والطموح الذي يدعمـه الإصرار لتجـاوز الواقع والتغلب عليه. إن زيارات الدهشة تنصف "سلالة النور" مـن آبـاء الثقافـة الحديثة، الذين كانوا مصدر الغذاء الروحي في عصر من عصـور الجديـة والكفـاح والصدق والإخلاص:" هي سلالة فذة تكاد تكون جنسا عجيباً أو فئة مـن النـاس بذاتها، ملأت ربوع مصر على امتداد القرن العشرين بنور المعرفـة والثقافـة والخلـق الرفيع، وعلى أكتافها قام التحقيق المبكر لمفهوم العلم الشائع كالماء والهواء، وتوحيد معنى العلم والنور وتفتح الحياة بأصفى وأعمق ما فى تراث الأمة مـن خـير وحـق وجهاد وتقديم وتحريك للثوابـت والرواكـد؛ فى معـترك الحريـة والعـدل وعلامـة التأسيس لوطن يحاول الصحوة ويكابد أهوال الخروج مـن بطـش الظـلام والقهـر وضياع الملامح وتعفن الهوية".

ومع أن محمد عفيفي مطر، لم يسهب أو يسترسل فى السرد، واكتفى باللقطات الدالة فى حياته، فإنه يمكن القول أن كتابه الآخر "مـن حكايـات الشـعر والشـاعر الذي عنونه بعنوان "مساعدة الأولاد كي لا يناموا" ؛ يعد امتداداً لأوائـل زيـارات الدهشة أو هوامش التكوين، فهو من ناحية ما حديث عن الشـعر الـذي اسـتقطب حياته منظوماً أو منثوراً- كما رأينا فى سيرته- متشبهاً ومتأثراً بمثله البياني في العصر الحديث "مصطفى صادق الرافعي"، وهو ما ذكره مراراً على امتداد السيرة، وكنـت قد شافهته به ذات يوم بعيد فى أحد لقاءاتنا القليلة.

ومن ناحية أخرى يرصد مسيرته الثقافية ورؤاه الأدبية فى إطار السرد الحياتي الغنى بالأحداث والتجارب والأحلام!

*** ***

مجموعتان قصصيتان

مشكلة اللغة في يد كتاب القصة والرواية هذه الأيام، تؤرقني وتقض مضجعي، وإن رآها بعض الدخلاء غير ذات قيمة، لذا أراني سعيداً حين أطالع كتاباً قصصياً أو روائياً يملك صاحبه السيطرة على اللغة والقدرة على تطويعها وتجاوز "الكليشهات" المألوفة إلى صياغة متميزة وطازجة وحية، وقد سعدت مؤخراً بقراءة مجموعتين جديدتين إحداهما للأديب "ضياء طمان"، والأخرى للأديب "رضا إمام".

المجموعة الأولى "الجسورة" لضياء طمان، تقدم تجربة أو تجارب تعتمد على المفارقة، الساخرة أحياناً، المشبعة بقدر من التضخيم أو التجسيم الذي يشبه "الكاريكاتير"، ليعطى القارئ في النهاية نكهة أسلوبية جديدة، تذكرنا بتجربة "محمد حافظ رجب" حين كتب عن "الكرة ورأس الرجل" و"مخلوقات" برّاد "الشاي المغلي" أو تجربة محمود عوض عبد العال في قصصه العديدة، وإن كانت تحتفظ في كل الأحوال بخصوصيتها التي تعتمد على التكثيف والتركيز وتجاور الأضداد والأشباه، والدخول إلى دائرة "تراسل الحواس" في أحيان كثيرة، ولنقرأ هذه الفقرة من "الجسورة" لنرى كيف تتحقق الخصوصية عند الكاتب: "وحده يتكئ على سواه؟ الفخر يدنو إليه بلا فخر، الأهل يتقيأون حسرة، والأصدقاء يحتشدون أمامه بالمنشأة، وحدها تتقدم.. وحدها تلح على يمينه ببصيص. الجسورة تتراكم؛ تدفعه نحوها بشعاع من الخلف، وترفعه من السقوط، وتؤسس شمعة تزخر له بالبر وتحترق أيضاً بالماء..." ص17.

إن هذه التجربة القصصية تحول الصفات من عالم غير المعقولات إلى عالم المعقولات، والمفارقة أساس نجاح هذا اللون التعبيري المكثف والمركز، وسوف نلاحظ أن معظم قصص المجموعة قصيرة للغاية، يصل بعضها إلى بضعة سطور،

ومع ذلك فإنها تبرز التجربة والرؤية في تكثيف مشع، وها هي أقصوصة بأكملها اسمها "أرزاق أخرىٍ" :

"الشباك العامة مثقوبة من الجهات الأربع، والصيادون وغيرهم ينزحون البحر من الجهتين بعيونهم المفقوءة من جهة واحدة، والأسماك تتطلع من الشبابيك المسدودة إلى كل الاتجاهات الأخرى خوفاً من الغرق سراً في حلم الواقع والبسطاء يمتنعون...أرزاق" أ.هـ.

هذه هي القصة التي تستدعى من القارئ أن يتمعنها ويدخل في أعماقها مرة بعد مرة حتى يقبض على الفكرة ويستخلصها من هذا المجاز المركب.

ثمة قدرة رياضية تتبدى أحياناً في بعض الأقاصيص، لعلها تعود إلى مهارة الكاتب بحكم تخصصه في الهندسة، وهى تحرك ذهن القارئ إلى محاولة فك طلاسم المجاز المعقد بصبر وترو، وفى قصة "ثامن جار" نلمح هذه المعادلة أو ما يشبه المعادلة الرياضية التي تحتاج إلى خبرة في تفكيك مثل هذه المعادلات:

"له دولتان. ولما كان الثامن بالنسبة لجاره الثامن، المريض جداً قرر عيادته من الأخرى التي أسف فيها لموته، فأقام فوراً بالثانية ليتمكن من عيادة أي ثامن جار آخر، علماً بأن السابع أو أقل، ثامن على الأقل أو يزيد أيا كان ما دامت القبلة قبلتين، والجار واحد".

هذا مجمل القصة الرياضية التي تفرض التفكير والحساب.. ولا أدرى مدى تقبل القارئ لها، وإن كنت آمل أن يقترب الكاتب منه إلى حد ما، فهناك بعض القصص التي تبتعد عنه إلى حد كبير.

المجموعة الثانية "الحدود الخفية" لرضا إمام تخوض تجربة المغامرة الأسلوبية في إطار آخر، هو اختيار بعض المفردات العامية الشائعة لتحل مكان البديل الفصيح، وهى مغامرة جيدة ومقبولة، وخاصة إذا اقتربت بالعامي من أصله الفصيح، ولغة القصة في "الحدود الخفية" تسعى أيضاً إلى التكثيف والتركيز،

وتستفيد منهما في صهر التجربة داخل إطار محكم. كذلك فإن الكاتب يستثمر المفارقة في أقاصيصه إلى أبعد مدى ويحقق من خلالها درجة كبيرة من التوفيق القصصي إن صح التعبير.. في مجموعة الأقاصيص القصيرة جداً التي صنع لها عنواناً عاماً "أحوال" نموذج لذلك. في أقصوصة "تواز" نقرأ: "قال له، وهو يرمقه بعينين لئيمتين خابيتين..."

- سمعت آخر شريط لمادونا ؟
- لا..
- طبعاً متخلف.
- أصل كنت مشغول حبتين في أول جزء من موسوعة عبد الوهاب المسيرى "اليهود واليهودية، والصهيونية".
- مين يا حبيب قلبي على المسيرى. هي وصلت لحد كده. طاب (كبر) دماغك وسلم على أتوبيس المستشفى. وقبل أن ينطلق بسيارته طلعة "أمريكاني" مالئة الشارع صخباً وعفاراً، التفت إليه من النافذة الأتوماتيك، صائحاً:
- على العموم أنا بالليل على القهوة لو جيت يعنى "تكفر عن سيئاتك" ص 64.

والمفارقة واضحة، ولا تحتاج إلى تفصيل، فالمهمومون بقضايا الأمة ومشكلاتها يرتكبون ذنباً كبيراً وإثماً عظيماً أمام المتأمركين الذين يعيشون التفاهة والشكليات وعدم المبالاة والامتلاء بالفجاجة والقبح.

وإذا كانت المجموعة الأولى تلح بالحديث عن المهمشين والعواطف النبيلة، فإن المجموعة الثانية تلح على ذلك أيضاً، فضلاً عن التركيز على القضية الفلسطينية وارتباطها المصيري بأرض الكنانة، ثم قضايا الشباب وواقعهم ومتاعبهم.

ثمة ملاحظة تتعلق بمجموعة "رضا إمام" وهى إهمال "المدقق" الذي تصدر اسمه البيانات في الغلاف الداخلي للمجموعة؛ بعض الكلمات وخاصة في

العناوين، لم يدقق فيها، أي لم يصححها أو يراجعها، هذا إذا فهمت مهمـة المـدقق، أما إذا لم أكن قد فهمت، فإني مدين له بالاعتذار.

تبقى المجموعتان دليلاً على اهتمام كتابنا الشباب بقضايا بلدهم وأمتهم، مـع رغبة مستمرة في تجويد أدواتهم ووسائلهم الفنية سعياً للتميز والتأثير والإمتاع.

*** ***

"شاعر يكتب القصة"

د. عزت سراج كاتب المجموعة القصصية "الشيخ طه"؛ شاعر وناقد متخصص، ولكونه كذلك فإن لغته قوية طيعة، يسيطر عليها لتهبه تميزاً يفتقده كثيرون من كتاب القصة القصيرة، أضف إلى ذلك حسه الشعري الذي يتبدى وراء الصور والتراكيب والبناء اللغوي بصفة عامة. والحس الشعري لا ينفصل عن الحس الإنساني في التقاط الصورة المعبرة واللحظة المؤثرة في حياة البشر، لذا جاءت معظم القصص مركزة ومكثفة، وبعضها لا يتجاوز سطرا وبعض سطر، ولكن اقتناص اللقطة واللحظة يمكن الكاتب من تقديم أقصوصة ذات أثر ما، مع قصرها واكتنازها، لتشبه في بعض جوانبها فيوضات الصوفية:

"ناداه بصوت عال؛ تلاشى في الضياء، وحين رأى نور وجهه انكشفت لنفسه سوءاتها. فمات " .

التركيز أو التكثيف في القصة يخلص الكاتب من ترهلات وزيادات وفضلات كثيرة، فضلاً عن اختفاء الصوت العالي أو الجهارة، ليهمس بما يريد دون ضجيج، وتبدو المفارقة سيدة الموقف في هذه الحال، فهي وسيلة الكاتب الأولى أو المقدمة التي يستخدمها للكشف وإظهار حقائق الوقائع وتناقضاته.

اقرأ مثلاً أقصوصة "واقع"، وهى مكررة الموضوع، وألح عليها كثير من الكتاب، الكبار والشبان، شخص يحب امرأة، وكانت القرائن والأحوال تقول إنهما سيتوجان حبهما بالزواج، ولكن الظروف تأخذ كلا منهما في طريق، ولكنه بعد زمان يفاجأ بها تسير في الشاعر ومعها أولادها:

"لم يكن قد رآها منذ عشر سنوات. كانت كل شيء في حياته. كان يعيش على أمل أن يراها ثانية. وحين رآها ذات يوم في الطريق صدفة مع أطفالها تسمر في مكانه لحظات، ثم ابتسم غير مصدق عينيه. لكنها لم تعرفه ومشت".

لقد لخص في هذه القصة كلاماً كثيراً يمكن أن يقال في مثل هذه الحالات، إن القدر صاحب إرادة تختلف عن إرادات البشر، والواقع ينزل عند هذه الإرادة ويتكيف معها بطريقة ما. في أقصوصة "ذئب" تتجلى المفارقة وتكتمل بالسخرية المدهشة أو غير المدهشة في حقيقة الأمر:

"كل الأطفال تقذف النخلة بالحجارة إلا هو. يجلس بعيداً عنهم بثيابه الممزقة. وحين يسقط البلح يجرى لينقض على أول واحدة، ويزاحم الأطفال. حين اشتد عودة- أخذ يرمى النخلة هو الآخر. وحين تزاحم الأطفال معه تحت النخلةلم يجدوا إلا النوى".

ويبدو أن التركيز أثر في بناء الأقصوصة وذلك باختفاء الحوار اختفاءً يكاد يكون تاماً، فقد كان صوت السارد هو الحاضر في كل الأوقات تقريباً،حيث يحكى غالباُ بصوت الماضي، كان، صار، أصبح،... حتى عندما يستخدم المضارع، فإن صوت الماضي يهيمن في نهاية المطاف. فلو قال : يجلس،يسقط، يجرى،ينقض،زاحم، نجد الماضي يظهر ليكون صاحب القول الفصل: اشتد، أخذ وهكذا، فالتركيز في كل الأحوال داخل المجموعة يرتبط بما كان، أو بما أصبح كائناً..

ولعل هذا يقودنا إلى الموضوع القصصي في المجموعة، وارتباطه بفترة متقدمة في عمر الكاتب، فمعظم الأقاصيص يدور في مرحلة الشباب المراهق أوالذي تخطاها إلى شرخ الشباب كما يقال، ومن ثم نجد المعالجة الأثيرة للعلاقات بين الرجل والمرأة أو الذكر والأنثى، ومع أن البطل يبدو غالباً من الذين يملكون حساً دينياً أو ضميراً تؤرقه قضية الحلال والحرام، فإنه غالباً ما يصحو هذا الضمير عقب العلاقة المحرمة أو قبلها.

لقد ترتب على ما سبق اندفاع الكاتب إلى ما يمكن تسميته بالمعجم الجنسي،الذي بدا في بعض الأحيان مجرد تعبير عن شهوة عارمة عارية لا تعرف الاحتشام، بل بدت بعض الألفاظ فجة أو قريبة إلى الفجاجة، وأتصور أن قدرة

الكاتب التعبيرية تؤهله للصياغة التي تحقق غاياته الفنية والجمالية في آن.. لغتنا العربية ثرية وغنية بالمعجم المباشر والمعجم المجازى الذي يساعد الكاتب أي كاتب على مواجهة أصعب المواقف وأعقد المشاعر بالتعبير العذب الجيد الجميل،دون تقصير أو افتعال أو تزيد!

ثمة ظاهرة أخرى تحكم بناء بعض الأقاصيص، وهى الأداء السيري الى أوالحلمى نسبة إلى الحلم وتنبع قيمة هذا الأداء في تخطى بعض الصعوبات الفنية لتوصيل الفكرة وترسيخها في ذهن المتلقي، وهو ما نراه على سبيل المثال في أقصوصة "مسافات"، فبطل الأقصوصة يدخل إلى الصلاة ولكنه مشتت القلب،يركع بينما المصلون خلف الإمام يسجدون، ويسجد وهم راكعون، الآيات تختلط عليه، لا يستطيع أن يكمل سورة الإخلاص، تقفز أمامه الذكريات في عشوائية، وينعكس حاله على سلوكه بصفة عامة، يدخل المسجد بقدمه اليسرى، ويخرج باليمنى، ولكنه يجد المصلين بعد انتهاء الصلاة في حشد كبير ملطخين بالدماء، ممزقة ثيابهم.. إنه عالم "كابوسي" يصنعه التعب والإرهاق والجدب الروحي والأحلام الموءودة والآمال المحبطة، ولكنه في كل الأحوال يتغلب على محنته، ويفيق ويستيقظ في حركة غير إرادية عنيفة، فيقفز بقدمه اليسرى إلى خارج المسجد، وفى يده اليسرى مسبحته ذات "الألف حصاة" بينما في اليمنى "خنجره ينز دماً"، والناس أمامه "يهرولون" في فزع وهم يصرخون دون جدوى!

الإحباط يفرض نفسه في كثير من الأقاصيص، والأحلام المجهضة تبدو حاضرة بقوة في العديد من المواقف القصصية (انظر أقصوصة "الشيخ طه" عنوان المجموعة على سبيل المثال)، ولكن صدمة الواقع، أو انتباهته تعيد الشخصية القصصية وغالباً ما تكون السارد إلى صوابها أو وعيها الحاد ما يجرى.

هذه المجموعة تمتلئ بالقدرة على التعبير الشعري الفائق، الذي يطيح بكثير من النماذج التي تدعى "الشعرية"، وذلك لأن كاتبها كما قلت شاعر، اتجه إلى

السرد، فكان الشعر أداته التي تركز المعنى والوصف والموقف والشخصية، وتقطر كل ذلك في نسيج متميز، وهو ما يشي بقدوم كاتب قصة- بل رواية- يملك طاقات فنية غير محدودة، وينبئ عن أدب جيد لو أتيح له الاستمرار والدأب.

*** ***

السيرة الذاتية

هذا كتاب رائد فى بابه، أعده الدكتور عبد الله الحيدرى، الإذاعي المعروف في المملكة العربية السعودية، يتناول فيه الأعمال الأدبية التي تندرج تحت جنس "السيرة الذاتية"، ذلك الجنس الذي يبدو أدبنا العربي غير مكثر فيه، بل يبدو ناشئاً ينمو على مهل، عكس الآداب الأوربية التى أكثرت منه، وأغرقت فيه من ناحية الموضوع خاصة، فقدمت ما يمكن وصفه بالخصوصية الشديدة التى يمكن أن نطلق عليها "المناطق المحظورة" فى حياة الأديب أو الشاعر أو الكاتب، وهذه "المناطق المحظورة" لا تتلاءم مع طبيعتنا العربية وعقيدتنا الإسلامية، وإن دعا بعض الكتاب العرب إلى اقتحام هذه المناطق وتقديمها إلى الجمهور، ومع ذلك فدعوتهم مردودة وغير مقبولة.

السيرة الذاتية فن صعب، ومن يتقنه يستطيع أن يقدم أعمالاً عظيمه تستمتع بها الأجيال المتتابعة وتستفيد منها وتقتدي بها أو بالإيجابي منها تحديداً.

وكتاب الحيدرى- الذي كان في الأصل رسالة ماجستير نوقشت بجامعة الإمام محمد بن سعود- يتناول السيرة الذاتية مفهوماً وتاريخاً وموضوعاً وفناً، ويخصص لذلك مساحة عريضة، وصلت فى طبعتها الثانية إلى ما يقرب من ثمانمائة صفحة من القطع الكبير.

وقد بدا الحيدرى فى مفهومه للسيرة الذاتية ميالاً إلى المفهوم التوفيقي، حيث قرن بها الاعترافات والمذكرات والذكريات واللامذكرات والفوجا الذاتية واليوميات، على أساس أن السيرة الذاتية هي الجذع وهذه الأنواع هي الفروع،ولكن السيرة الذاتية الفنية- فى تصوري مغايرة للمذكرات والذكريات واليوميات و... وإن كانت تتضمن خيطاً منها أو يتسرب عرق منها فى ثناياها،فالسيرة كما عرفها "يحيى عبد الدايم" رحمه الله بناء مرسوم واضح يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التى مرت

به،ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن ينحى جانباً كثيراً من التفصيلات والجزئيات التى تستعيدها ذاكرته، مع إمكان الاستفادة مما قد يكون لديه من يوميات ومذكرات ومدونات ووثائق قد تعينه على تمثل الحقيقة الماضية أو الأحداث التى مرت به.

ويرى الحيدرى وهو رأى أوافقه عليه أن الاعترافات والمذكرات والذكريات واليوميات مادة خام، ومكون أساس فى بنية السيرة الذاتية، بدليل أن الدارس، أيا كانت لغته، يمكن أن يقول : فن السيرة الذاتية، ولكنه لا يمكن أن يقول : فن المذكرات أو فن اليوميات..

ويقدم الباحث فى حديثه عن النشأة والتطور جدولاً مهماً حول كتب السيرة الذاتية والذكريات التى صدرت فى خمسة عقود تبدأ من عام 1370هـ حتى عام 1419هـ (النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي تقريباً) وهى: أبو زامل 1374هـ-46 يوماً فى المستشفى 1374هـ- هذه حياتي 1376هـ-مذكرات طالب 1376هـ- أشخاص فى حياتي 1370هـ- أيامي 1390هـ- تجربتي الشعرية 1392هـ- ذكريات طفل وديع 1397هـ- ذكريات 1397هـ- سيرة شعرية 1400هـ- ذكريات مدرس 1405هـ- رحلة الثلاثين عاما 1401هـ- مشواري مع الكلمة ج1، 1403هـ- مشواري مع الكلمة ج2، 1404هـ- تلك الأيام 1406هـ-ذكريات العهود الثلاثة 1408هـ- أيام فى المستشفى 1410هـ- من ذكرياتي 1412هـ- تباريح التباريح 1412هـ-رحلة العمر 1413هـ- حياتي مع الجوع والحب والحرب 1414هـ- صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث: مذكراتي خلال قرن من الأحداث 1415هـ- شيء من التباريح 1415هـ- السنوات الأولى: ترجمة حياة 1415هـ- حكاية الفتى مفتاح 1416هـ- مكاشفات السيف والوردة 1417هـ- ما لم تقله الوظيفة: صفحات من حياتي 1417هـ-

حياة فى الإدارة 1418هـ- عبد الله بلخير يتذكر 1419هـ- ومررت بالدهناء 1419هـ.

ويلاحظ أن العقود الأربعة الأولى يتراوح فيها نشر الترجمة الذاتية والذكريات بين لا شيء وسبعة أعمال، أما العقد الخامس، وهو العقد الهجري الماضي (1410-1419هـ)، فقد حظي بنشر أكبر عدد من الأعمال يصل إلى ستة عشر عملاً.

لقد توقف الحيدرى عند هذه الأعمال طويلاً وتناول القوالب التى صبت فيها والموضوعات التى عالجتها: تاريخياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً.. ولكن وقفته المهمة والأساسية كانت فى الفصل الثالث الذي سماه الخصائص الفنية، فقد تناول فيه جوانب عديدة تتناول الباعث الفني، وشخصية الكاتب، والنزعة القصصية،والاعتدال والتكلف، والمستويات الزمنية، وصورة المكان، واللغة والأسلوب... وكلها جوانب مهمة تخص الدراسة التطبيقية للسيرة الذاتية من خلال الأعمال موضوع البحث، وقد بذل الحيدرى جهداً كبيراً فى تناولها يحسب له بالتقدير والاحترام.

وأود أن أشير فى النهاية؛ إلى ما سماه الكاتب بالاعتدال والتكلف، فقد يلتبس الأمر على القارئ فى تفسير مفهوم كل منهما، فالاعتدال الذي يقصده الباحث فى سياق الترجمة الذاتية أو السيرة الذاتية هو ما يتعلق بالقصد فى سرد الأحداث التى مر بها الكاتب أو الأديب أو الشاعر، فلا يذكر غير الحقيقة، ولا يتكلف أو يسرف فى ذكر ما يجرح الشعور العام أو يخدش الحياء أو يخالف الآداب الاجتماعية، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [سورة الأنعام:152]، ومن هذا المنطلق فإن ترجمة المرء لنفسه يجب أن تعتمد الصدق وتعتمد الصراحة، والتزام الأمانة والتثبت، وعلى المرء أن يتهم نفسه فيما يكتب عنها، فيعيد، ويوثق، ثم يعيد ويوثق، حتى يكون من أصدق الناس فيما يرويه عن أحواله.. ولهذا قال بعضهم :إن

الترجمة دفتر الحسنات والسيئات.. وليس معنى ذلك أن ينشر الإنسان الفاحش من القـــول والأعـــمال﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [ســورة النســاء:148] **ويقـــول الرســـول ﷺ : "كـــل أمتـــي معافـــاة إلا المجاهرون..الحديث"**.إن هذا البحث الجيد ثمرة بذل وتضحية، وكما قلـت؛ فـإن صاحبه يستحق التقدير والاحترام، لأنه فتح بدراسته هذه مجالاً، تابعه فيه بـاحثون آخرون، مما يعطى لفن السيرة الذاتية، بوصفه فناً سردياً فرصته للنمو والازدهار، فى حديقة الأدب العربي المعاصر، خاصة إذا عرفنا أنه فن أدبي قديم كتبـه أعـلام أدبنـا العربي في عصوره المختلفـة، وقـد تناولـه فى كتاباتـه الـدكتور صـالح بـن معـيض المغاورى وغيره.

ثالثاً: أعلام وأدباء

- النهضة الإسلامية من خلال سير أعلامها
- أحمد أمين وأولاده للإنتاج الفكري
- عميد الأدب العربي في السودان
- مرارة التجاهل وهجير النفي

عرفتُ الدكتور "محمد رجب البيومي" (1923- 2011 م)، منذ أربعة عقود، طالعت ما كان يكتبه فى المجلات الأدبية داخل مصر وخارجها. وفى عام 1967م كنت أجلس فى مكتب صاحب الرسالة "الأديب الرائد/ أحمد حسن الزيات "بمجلة الأزهر"، وكان سكرتير التحرير الشيخ "يوسف الشال"- رحمه الله- يعرض المقالات الواردة إلى المجلة على الزيات، ليرى ما يصلح منها للنشر، فكان ينظر فى بعضها، أو يطالعه فى إطلالة سريعة بحكم خبرته بالكتاب والموضوعات. وحين جاء عرض مقال للبيومى، فإن الزيات أومأ بالموافقة على الفور، لأن ثقته فيما كان يكتبه كانت راسخة مذ كان يكتب فى الرسالة القديمة (الإصدار الأول الذي توقف عام 1954م)، والرسالة الجديدة (الإصدار الثاني الذي توقف عام 1965م)، وهى غير الرسالة الجديدة التى صدرت فى الخمسينيات برئاسة يوسف السباعي.

والبيومى من الأدباء العلماء، الذين أثروا – وما زالوا- حياتنا الأدبية والفكرية بالعديد من الآثار المهمة فى مختلف الفنون الأدبية والمجالات العلمية. فقد ألّف عشرات الكتب فى الأدب والبلاغة والنقد والتفسير والسيرة والتاريخ والدفاع عن الإسلام فضلاً عن دواوين شعرية ومسرحيات شعرية ونثرية، وقصص تاريخية وقصص للأطفال، بالإضافة إلى مقالاته وبحوثه التى لم يتوقف نشرها مذ بدأ الكتابة حتى اليوم، حيث يتولى رئاسة تحرير أقدم المجلات الإسلامية فى العصر الحديث- أعنى مجلة الأزهر.

ومن عناوين بعض كتبه: البيان القرآني البيان النبوي- الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر- نظرات أدبية (4 أجزاء)- حديث القلم- التفسير القرآني- الأزهر بين السياسة وحرية الفكر- مع الأبطال- فى ميزان الإسلام- فى ظلال السيرة- من شرفات التاريخ..

ويعد كتابه "النهضة الإسلامية من خلال سير أعلامها المعاصرين" الذي صدر في خمسة مجلدات (تقع فى خمسمائة وألفى صفحة من القطع الكبير)، من أهم مؤلفاته التى حققت هدفين مهمين :

أولهما: إنصاف عدد كبير من أعلام النهضة الإسلامية، قاموا بأدوار عظيمة فى خدمة الإسلام والأمة، وتجاهلتهم أجهزة الإعلام والثقافة، أو لم توفهم حقهم، كما ينبغي أو يليق.

الآخر: أنه لم يكتف برصد ما يتعلق بالجانب التاريخي الجاف، ولكنه تجاوز ذلك إلى ما يمكن تسميته بالتاريخ الحي، الذي يكشف عن دور العلَم صاحب الترجمة، فى مجال النهضة الإسلامية المعاصرة، ومدى ما قدمه من جهد، وبذله من عطاء. وكان ذلك منهجه الذي اتبعه في سياق التعامل مع أكثر من مائة شخصية عربية إسلامية تبدأ من سيبريا فى أقصى الغرب الآسيوي، حتى إنجلترا التى كانت تمثل القوة العظمى ذات يوم، وضمت رجالاً ينتسبون إلى الإسلام، وقاموا بالدفاع عنه دفاعاً مجيداً.

إننا نستطيع أن نعيش فى هذا الكتاب، مع عبد الرشيد إبراهيم داعية آسيا، ومحمد الخضر حسين وعبد الحميد بن باديس الإمام الجزائري المجاهد ومحمد إقبال شاعر الإسلام وداعية الحق، وأبى الأعلى المودودى صوت الإسلام الصادق، ومحمد عاكف شاعر الإسلام فى تركيا، وأحمد عبد الغفور العطار البحاثة، والسيدة لبيبة أحمد صاحبة مجلة النهضة الإسلامية، ومحمد عمر التونسي، إلى الدكتور نجيب الكيلانى الروائي المكتمل.

لقد اختار البيومى، أن يتحدث عن النهضة الإسلامية من خلال أبطالها من أئمة المسلمين فى التخصصات المتنوعة، حيث يكشف عن أعمالهم، ويفسر دوافعهم الذاتية، ويقدر جهادهم الدائب فيما اعترضهم من الصعاب، مما يمكنه من الحكم العادل الذي يطمئن القارئ الحصيف.

إن الأمة الإسلامية وإن تعرضت لهزات المطامع الداخلية والخارجية على أمدها الطويل، فقد ظلت كما يقول البيومى محافظة على مكامن قوتها الداخلية إلى مدى بعيد. لقد انتصرت أوربة عسكريا بتقدمها الصناعي، وحسبت أنها تنتصر حضارياً وإنسانياً، فتجذب إليها المغلوبين، ثم قدمت إلى الشرق وفى نيتها أن تعيد الحروب الصليبية فى لون جديد، فبدلاً من أن تكون الحرب سافرة فى ساحات المعارك الدامية، فإنها تكون حرباً نفسية وثقافية: نفسية حين تتجه إلى التشكيك فى القيم الإسلامية، ومحاولة إرجاع الضعف والتخلف والتقهقر إلى مكوناتها. وثقافيّة: حين تفرض ألوانا من المعارف والفنون تنسب لأوربة المسيحية بوصفها باعثة التقدم وطريق النهوض. واستطاعت أوربة المنتصرة أن تستميل إليها طبقة من الأغرار الذين بهرهم البريق الزائف، ودفعت بهم إلى سحق المثل الإسلامية والقيم الدينية، لدرجة أن اعتقد بعض الأوربيين من أمثال (برايس) بأن عمر الإسلام لن يمتد إلى أكثر من قرنين، ونسى القوم أن القرآن الكريم، كتاب الإسلام الخالد، مشهور ومتداول ويقرؤه كل مسلم، فيعرف الرائع والممتاز من قيمه الهادية، ومثله الكريمة.

ولعل الافتراءات الصارخة التى أطلقها كرومر ضد الإسلام على سبيل المثال، كانت حافزاً لنقض أخطائه وتفنيد أوهامه. كما فعل محمد فريد وجدي وآخرون من أعلام النهضة الإسلامية المعاصرين، الذين أكدوا على حيوية الأمة، وقدرتها على تجاوز المصاعب والعثرات، وإن طال الزمان.

إن تقديم أعلام النهضة الإسلامية المعاصرين، من خلال جهودهم الضخمة فى الدفاع عن الدين وهوية الأمة، دليل عملي على مواجهة الذين يسيئون الظن بمستقبل النهضة الإسلامية بما يعلمون من تقلبات التاريخ جزراً ومداً، واختلاف الدولاب صعوداً وهبوطاً، فنذكر لهم : أن من يعلم ما تعرض له الإسلام من محن داهمة منذ سقوط بغداد 656هـ، وما يليها على أيدي التتار، وهجوم الصليبيين على

المشرق، واستئصال المسلمين بالأندلس! حيث كان يوشك أن يهوى بنيان الإسلام إلى حيث لا يستطيع النهوض... ولكن مضى الزمن وذهبت العواصف المتزاحمة مرتدة خائبة، وخرج المسلمون من مصائبهم الداهمة منتصرين.

وطريق النهضة الإسلامية فى شتى ميادينها المتباعدة لن يكون دون مراجعة فاحصة لتاريخ المكافحين المعاصرين ممن واجهوا تحديات الغزاة فى ميادين السياسة والعلم والأدب والخلق والعزة الإسلامية، ووقفوا أمام عوائقه الجاهزة وقفات الجهاد والجلاد وهم من الكثرة التى لا تحصى.

وهناك ملاحظة عامة، وهى أن هؤلاء الأعلام كانوا قريبين من المؤلف، أوكان المؤلف قريباً منهم بصورة ما، ولو عن طريق غير مباشر، فاحتفظ بحرارة نقل الصورة السلوكية أو الفكرية نقلاً حياً، عن طريق بعض الحكايات أو المواقف،التى تؤكد حكماً دقيقاً على الشخصية، وتعطى دلالة واضحة على منهجه وطريقته ولو أخذنا نموذجاً واحداً من هذه المواقف أو الحكايات، لدى الشيخ عبد العزيز جاويش مثلاً الذي يصفه الكاتب بالمجاهد الكاتب البطل، لعرفنا من يكون الرجل، كيف يفكر، ومدى حرصه على دينه ووطنه..

فقد جاء بعض المستشرقين فى زيارة إلى القاهرة، وكان ذلك فى مطالع القرن العشرين، فأقامت له بعض الدوائر الرسمية احتفالاً مهيباً، وأسهبت الصحف فى الثناء عليه وتعديد مآثره، فى التحقيق ونشر الموسوعات وأقيم له فى هذا السياق حفل حضره وزير المعارف بإحدى دور العلم الكبيرة، كما حضر جمهور كبير لمشاهدة الحفل، ونهض الوزير ليكرم المستشرق المحتفى به فأثنى عليه وعدد مزاياه مفتتحاً المجال أمام أساتذة جامعيين وآخرين، ليتابعوا من بعده الثناء على المستشرق، والوصول له إلى منتهاه، فوجئ الجمهور بالشيخ جاويش يتقدم بقامته الممتدة وعمامته العالية، وعباءته الفضفاضة، وعصاه الممتلئة، يعتلى المنصة مقحماً نفسه- بعد أن انتهى الوزير من كلمته، ثم يرسل عينيه، المتلألئتين، ببريق يمتد إلى

ثناياه اللامعة ويدور حول لحيته السوداء ذات المشهد الوقور، ويبتدئ الحديث بحمد الله، ثم يقول ما معناه:

إن كلمة وزير المعارف تدل على أنه لم يقرأ شيئاً عن هذا المستشرق الذي تكرمونه، إذ إن المؤلفات التى تحدث عنها الوزير، وسيتحدث عنها بالطبع من أعدوا أنفسهم للكلام ليست إلا طعنات مسمومة للفكرة الإسلامية، وقد قرأتها فى أثناء إقامتي بإنجلترا، وناقشت صاحبها فلم أجده يخطئ إلا عن عمد، فهو يدرى الصواب، ويتجنبه، ثم يلتمس أوهى الروايات ليبنى عليها ما يروق من التدليس والافتراء! لو كان لدينا وعى ثقافى لكرمنا الرجل ضيفا فقط لا علامة بحاثة!

لقد ارتج الحفل ارتجاجاً واضطرب الوزير المحرج المأخوذ، وتساقط عرق الخزي على من أعدوا أنفسهم للكلام، وزاد الموقف خطورة حين وقف النائب الباسل، والمسلم العربي الشهم: عبد الحميد سعيد رئيس جميعات الشبان المسلمين، وأنهى الحفل، والشيخ جاويش يصيح: يا للمذلة! أوصل انهيار المسلمين إلى حد جعلهم يقيمون حفلات التكريم لمن يصم دينهم بالتوحش والغلظة والشهوة والاستعباد! ثم يكون رئيس الاحتفال وزير المعارف، ومتكلمون من أساتذة الجامعة فى عاصمة الإسلام؟!

ولا ريب أن قارئ المجلدات الخمس، سيطالع تاريخ النهضة الإسلامية المعاصرة من خلال أعلامها الذين تفيض مواقفهم وأفكارهم تعبيراً عن حيوية الأمة وخصوبتها، وقدرتها على تجاوز المحن والآلام، ومع أكثر من مائة علم مسلم، فى مختلف المجالات، يتأكد المسلمون أنهم سيتخطون العقبات، بل سيقتحمونها، لبناء مستقبل أفضل، حافل بالأمل والعزة والكرامة.

*** ***

أحمد أمين وأولاده للإنتاج الفكري

تمنيت من صديقي اللدود الدكتور جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة (سابقاً) أن يحتفي بجيل الرواد كله، وجيل البناة كله، أقصد أعلام الفكر والثقافة والأدب مثلما احتفى ببعضهم الآخر، فمن منا من لم يتأثر بصاحب "الرسالة" أحمد حسن الزيات، ومحرر "الثقافة" أحمد أمين، والكاتب الساخر عبد العزيز البشرى، وصاحب الأسلوب المقطر "مصطفى صادق الرافعي" ثم العلامة المحقق "محمود محمد شاكر" وشقيقه العلامة المحقق "أحمد محمد شاكر" وقريبهما العلامة المحقق عبد السلام هارون" وغير هؤلاء عدد غفير من الأعلام فى شتى التخصصات، قد لا يروق بعضهم، فكراً واتجاهاً، لبعض الجهات، ولكنهم على كل حال، يمثلون جهداً وإضافة، وأياماً لم تنقرض، وتاريخاً لن يمحى، وتأثيرهم فعال لما يزل فى أرجاء الوطن العربي والأمة الإسلامية بأسرها.

وإذا كنت أخص "أحمد أمين" بعنوان هذه الكلمة، فلأنه الرجل الذي واجه الناس بتواضع العالم، واعتزازه بنفسه وكرامته، عندما قال :"أنا أصغر من أستاذ وأكبر من عميد" فى معرض تخليه أو استقالته من عمادة كلية الآداب. لم أتأثر بكلمات "عبد الرحمن بدوى" فى سيرته الذاتية عن أحمد أمين، ولا بما نسبه إليه، فأنا أقدر الظروف التى دفعته إلى ما قال، لأن أحمد أمين هو صاحب التاريخ لفجر الإسلام وضحاه وظهره، ولعله كان من أوائل الذين أشاروا إلى ما يسمى بالحضارة الإسلامية فى تجلياتها الإنسانية والبشرية، أكثر من إشاراته إلى الحوادث الجافة والوقائع المجردة التى تتعلق بالحكام وحواشيهم، فقد أبرز دور الأمة والشعوب فى مجالات الحضارة بمعناها الواسع العريض: العلم،الفقه،الفلسفة، الفلك،الرياضيات، العسكرية، الإدارة، شئون الحكم...إلخ.

وأحمد أمين من أوائل الذين أرخوا للنقد الأدبي، وللأدب في العالم (بالاشتراك مع غيره) ووضع قاموس العادات والتقاليد الشعبية، ثم كانت كتبه التى شارك فيها بوصفها مناهج تعليمية فى المرحلة الثانوية، نصوصاً أدبية وبلاغةً عربية، من أجمل الكتب المدرسية التى أثرت فى أجيال عديدة حتى الآن (أعادت قصور الثقافة طبع بعضها فى عام مضى).

أحمد أمين، فى الصحافة الأدبية، وما تجلبه من نقاشات عارك،أضاف،وشجع على الإضافة، بحكم الحرية التى كانت سائدة فى زمنه وعصره، وعلى صفحات "الثقافة" لمع عدد كبير من أصحاب الأقلام الحقيقيين، فى الشعر والقصة والنقد والتاريخ والسياسة والاجتماع والفن الرفيع.

وقد عاصر فى أواخر حياته تغير مصر ـ من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري، فأعرض عن سماع خطب قادة النظام الجديد لسبب رآه جوهرياً،هو الخطابة بالعامية، مع سبب آخر، هو الأخطاء النحوية فى خطبهم الفصحى! وهذا بالطبع ليس رجعية من أحمد أمين، بقدر ما هو إدراك للصواب الذي ينبغي أن تكون عليه الأمور، حتى لو خالف رغبة الجماهير وهتافاتهم الداوية بحياة الزعيم ورفاقه!

أنجب أحمد أمين، ثلاثة أبناء غير البنات كما أحسب اعتماداً على الذاكرةمنهم اثنان شغلا الناس والحياة الثقافية أو الفكرية، أولهما جلال أحمد أمين،والآخر حسين أحمد أمين، أما الثالث فلا أذكر عنه شيئاً، مع أنى قرأت ما كتبه جلال عن نفسه وعائلته فى "الهلال" منذ زمن.

يعنيني في "جلال" إخلاصه الذي يبدو من كتاباته، وأحترم آراءه فى الاجتماع والاقتصاد، حتى لو لم أقتنع بها، لأنها تنم عن جدية ووعى واهتمام بقضايا المجتمع، وقد قرأت معظم ما كتبه، وأتابع مقالاته فى المجلات الدورية والصحف، وأحتشد لها بكياني لأني أشعر أن صاحبها يتمنى أن ينقذ وطنه وشعبه.

أما "حسين"، فهو يذكرني بالراحل "فرج فوده". لماذا؟ لست أدرى! ولكنى أعبر عما أشعر به وألمسه، كلما طالعت له مقالاً مزيناً بصورته، أو قرأت له كتاباً أصدرته دار نشر كبرى.. ولعله السبب الحقيقي في كتابة هذا المقال أو هذه الكلمة، فقد كنت أتهيأ لأرد عليه، وأشتبك معه فى القطعة التى نشرها قبل فترة في جريدة "القاهرة"، ولكن الدكتور "سيد كشك"، كفاني الرد بأدبه الرفيع وتواضعه الجم، وهدوئه الملموس فى عدد (13/ 5/ 2003).

مشكلة "حسين" أنه لا يريد استخدام إمكاناته "الدبلوماسية"- وهو الدبلوماسي الذي شغل منصب سفير ولا يحرص على استخدام الصيغ الدالة والكلمات الدقيقة، وهو ابن الأديب الناقد الكبير، ولكنه تابع تياراً صب كل مياهه فى نقطة واحدة، فأغرق الدنيا ومن حولها، ولم ينقذ أحداً بكلماته أوأفكاره التى ظن أنها طوق النجاة لملايين الغرقى والتائهين.

لقد تعرض "حسين" بكتاباته لقضايا لم يتخصص فيها، ولم يأخذ بالقسط الكافي من الثقافة الملائمة التى تؤهله للبحث وإصدار الأحكام، مع أنى لاأصادر حقاً لأي مخلوق يكتب فى الشريعة الإسلامية أو أي جانب من جوانب الإسلام، ولكن المتفق عليه أن الكتابة تحظى بثقة القراء، حين تكون فى إطار جاد، يقوم على الوعي الدقيق والصحيح من جانب الكاتب بالموضوع الذي يعالجه.

وفى ظني أن الذين عالجوا القضايا الإسلامية، معتمدين على السماع، أوالكتابات الصحفية السريعة، أو قراءة بعض قصص ألف ليلة وليلة أو بعض كتب المستشرقين وأتباعهم فى بلادنا، لن يقدموا فكراً إسلامياً جيداً، فضلاً عن أن يكون صحيحاً. ومهما يكن من أمر، فإن "أحمد أمين" وأولاده، قدموا لنا فكراً أو أدباً أو ثقافة فيها ما هو جدير بالتقدير، وفيها أيضاً ما يثير التساؤل والاعتراض.

*** ***

عميد الأدب العربي في السودان

في أواخر السبعينيات قرأت دراسة ممتعة، فى أسلوبها ومضمونها، حول تـأثر ت.س. إليوت، الشاعر الأنجلوأميركى المعروف، بمعلقة الشاعر الجـاهلي "طرفـة بن العبد". كانت الدراسة فى صحيفة عربيـة أفسـحت لصـاحبها مسـاحة عريضـة وطويلة، وكنت قد عرفته من قبل فى كتاب مهـم اسـمه "المرشـد" فى فهـم أشـعار العرب وصياغتها، وتوطدت معرفتـي عـلى الـورق بالعلامـة السـوداني "عبـد الله الطيب المجذوب"، وتابعت كتاباته، وتوقفت مـع أشـعاره عنـد دراسـتي لـبعض القضايا الأدبية، حتى جاء نعيه أواخر يونية 2003، ولكـن صـحافتنا لم تلتفـت إلى الرجل الذي يعد "عميد الأدب العربي في السودان"، ويحظى بمنزلة رفيعة فى أرجاء الوطن العربي، سواء في المجامع اللغوية أو المحافل العلمية الأخرى، ونـال تقـديراً كبيراً من رواد أدبنا المعاصر.

الرجل من طراز رفيع وفذ، فهو أصيل فى لغته وفكره ومعرفته، درس فى بلاد الإنجليز واختلط بأهلها، وعمل فيهـا أسـتاذاً ومعلـماً، ولكنـه ظـل وفيـاً لثقافتـه، حريصاً عليها، مكافحاً من أجلها. ومع أنه تزوج من "إنجليزية" فى وقت مبكر، إلا إنه بقى منتمياً لدائرته العربية الإسلامية دون خجل أو إحساس بالدونية، فقد كـان يعرف قيمة هذه الدائرة، وقدر الانتماء إليها.

جهود الرجل فى مجالات اللغة العربية وآدابها، كبـيرة وممتـدة، فهـو اللغـوي الذي يخدم اللغة على أكثر من مستوى، بـدءاً بأسـلوبه المتميـز الـذي يحـرص عـلى استخدام الكلمة الدقيقة، والتركيب المحكم، والصورة المضيئة، والإيقـاع الجميـل، ومروراً بقضاياها فى مجال الدرس والبحث، إلى المشاركة فـيما يـدور حولهـا داخـل مجمع اللغة العربية بمصر بوصفه عضواً فيـه، ومجمـع اللغـة العربيـة فى السـودان بوصفه رئيساً له.

لقد عمل أستاذاً للأدب العربي داخل السودان وخارجه، فكان رئيساً لقسم اللغة العربية ومناهج المدارس المتوسطة فى معهد بخت الرضا لتدريب المعلمين فى السودان، وأستاذاً فى قسم اللغة العربية بجامعة الخرطوم، وعميداً لكلية الآداب فيها. وكان محاضراً فى كلية الدراسات الشرقية والإفريقية فى جامعة لندن، وكان أستاذاً زائراً فى عدد من الجامعات العربية والإفريقية والبريطانية، فضلاً عن عضويته فى هيئة تحرير الموسوعة الإفريقية فى غانا، ورئاسته لاتحاد الأدباء السودانيين.

يروى عن الدكتور عز الدين إسماعيل أنه قال حين تقاسم جائزة الملك فيصل عام 2000 مع "عبد الله الطيب"؛ "حاشا أن أتقاسمها مع أستاذي".

ولد "عبد الله الطيب المجذوب" فى 2/ 6/ 1921 بقرية "التميراب" غرب مدينة "الدامر"- ولاية نهر النيل – ونشأ فى الخلوات (تشبه الكتاتيب)،وتنقل بين مدن السودان للدراسة حيث تعلم فى مدارس كسلا والدامر وبربر، وكلية جوردون التذكارية، والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت الرضا، وذهب فى بعثة إلى جامعة لندن وحصل على شهادة المعادلة فى البكالوريوس فى الآداب من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية عام 1948،ثم حصل على الدكتوراه عام 1951 حول الشاعر الأشهر "أبى العلاء المعرى" وشعره..

أنتج "عبد الله الطيب" مجموعة كبيرة من الدراسات الأدبية المهمة فى مقدمتها "المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها" ويقع فى أربعة مجلدات،ألفها على مدى خمس وثلاثين سنة، وحلل فيها جوانب الشعر العربي،وتطور القصيدة العربية وتأثيرها فى الشعر العالمي. ومن مؤلفاته :"القصيدة المادحة"، ومع "أبى الطيب"، و"التماسة عزاء بين الشعراء"،"ذكرى صديقين".

أما الشعر، فله عنده منزلة كبيرة إبداعاً وتذوقاً، ومن دواوينه "أصداء النيل "اللواء الظافر"سقط الزند الجديد"، "بانات رامة"، "أغاني الأصيل"، وبالإضافة إلى الدواوين فقد أنتج عدداً من المسرحيات الشعرية، وبعض المؤلفات بالإنجليزية.

يبدو تأثر عبد الله الطيب بأبي العلاء المعرى وأبى الطيب وأبى تمام والبحتري كبيراً وواضحاً، وبارزاً فى أشعاره ودراساته على السواء، وهذا التأثر هو الذي جعله وفياً للقصيدة العربية ذات الشطرين والقافية الموحدة، وجعله من أكثر الشعراء المعاصرين اعتزازاً بموسيقى الشعر وتذوقاً لها، وتطويعاً للبحور التى يهرب منها معظم الشعراء مثل : المنسرح، فقد حببه إليه أبو الطيب وابن قيس الرقيات، وفى مقدمة ديوانه "أغاني الأصيل" يطرح قضية الموسيقى الشعرية باستفاضة، ويرى أن الشعر خيال ووجدان وحكمة وإيقاع. أما الخيال فذكريات وتجارب وأوصاف. وأما الوجدان فعواطف وعبر وأنفاس حرار طوالُ وقصارُ، وأما الحكمة فالأمثال والمواعظ والعبر تنتزع من "الفولكلور" مباشرة كما عند طرفة، أو تقاس عليه بدقة فكر وبلا تعمل وتكلف كما عند زهير فى الأوائل، وأبى الطيب وأبى تمام فى المحدثين..

وأما الإيقاع فهو الطريق الرئيسي لجميع ما تقدم ذكره من عناصر الشعر،وبه يفترق الأداء الشعري عن الأداء النثري، "إذ الشعر موسيقى بيان، والنثر بيان" قد تصاحبه الموسيقى أحياناً كما فى رسائل الجاحظ ومقامات الحريري، وزعم الفارابي يقول عبد الله الطيب أن صناعة الشعرِ "رئيسة البيئة الموسيقية" وأن الموسيقى إنما نتعلمها من أجل فهم الشعر وتجويده وإدراك غاياته.

إنه يدعو إلى التذوق الطيب، ويرى أن الذوق متى تعود على خبيث فسد به؛ تعذر إصلاحه أو تعسر، وأعيت الرجعة إلى تذوق الطيب الذي كان من قبل أن يألفه ويحبه فكيف إذا تعود على الخبيث من غير سابقة عهد بالطيب لالتماس الحاجة

هذا فلا تجد إلا ذاك؟ فلا غرو أن نجد الناشئة الآن لا يقبلون على الشعر الجيد حقـاً بل ينفرون.. ومن جهل شيئاً عاداه...

رحم الله "عبد الله الطيب المجذوب" فلو سمع بعض الـدعاوى عـن تغيـير الذائقة، والنثر الذي يسـمى شـعراً لقـال كلامـاً يؤكـد كلامـه السـابق، فتصـحيح الأذواق وإصلاحه يصحح اللغة ذاتها ويحافظ عليها، فاللغة كما يرى عنوان نهضـة الأمة العربية وشاهد عزتها بلا أدنى ريب.

***   ***

محمد عفيفي مطر
مرارة التجاهل وهجير النفي

سموه تكريماً.. شكر الله لهم. قدموا للمكرم الشاعر "محمد عفيفي مطر" شهادة على ورق البردي اعترافاً بدوره فى مجال التجديد الشعري. وتبارى الجالسون فى التعبير عن عظمة الشاعر وموهبته، وتنافسوا فى إدانة الواقع الثقافي الذي تجاهله أو نفاه خارج دائرة الضوء والبريق.

جرى ذلك على امتداد ساعتين تقريباً فى "القناة الثقافية" قبل فترة ،حيث رأينا رئيس القناة يحضر متأخرا إلى جلسة التكريم كما سميت ليشارك المذيعة فى الحوار والنقاش.

واعتقادي أن من يعيش مترفعاً عن اللهاث وراء أجهزة الدعاية والمؤسسات الرسمية الثقافية والفكرية والتعليمية، عليه أن يتحمل نتيجة موقفه، ولا يشكو أبداً. ألزمت نفسي بذلك منذ زمان بعيد، وأظن المحتفى به فعل الشيء نفسه، وقد عبر عن هذا فى إجابة قاطعة، حين سئل من أحدهم، لماذا لا يقوم بدور ما فى متابعة شعره وتقديمه للناس؟ فقال : إن العبد لا يستطيع أن يخدم سيدين فى وقت واحد. أي لا يستطيع أن يخدم الشعر والشاعر معاً،فالاهتمام بالدعاية لا يمكن الشاعر من تجويد شعره وخدمته كما ينبغي.

ورأيي أن الأديب حين يبحث عن البريق اللامع فى أجهزة الدعاية والمؤسسات الثقافية، يفقد نفسه ويضيع موهبته، وغالباً ما يفقد موقفه الفكري الحقيقي؛ أياً كان هذا الموقف.. ثم إن أي أديب أو مثقف لن يحصل على واحد من مليون مما يحظى به ممثل شبه مغمور أو مطرب درجة ثالثة، فضلاً عن راقصة تظهر لدقائق فى أحد الأفلام أو أحد الأفراح.

قبل أسابيع توفى ممثل شاب، فقامت الدنيا ولم تقعد، تفتح الصحف والمجلات تجدها تتحدث عنه، تفتح المحطات الإذاعية تسمعها تتحدث عنه، تفتح

القنوات التلفزيونية تشاهدها تصوره منذ طفولته حتى سرادق العزاء، الذي امتلأ بزملائه وأصدقائه.. هذا هو البريق الإعلامي الذي يتلبس بعض الفئات، ليس من بينهم أبداً، فئة الكتاب والشعراء، لأن هؤلاء محكوم عليهم أن يعيشوا فى عالم آخر غير عالم الناس، كما سبق أن فصل ذلك "أبو هلال العسكري" حين اضطر أن يجلس فى السوق يبيع ويشترى، ورأى الناس "قروداً" لا تفقه معنى العلم، ولا تعي دور الأدب أو الثقافة.

"محمد عفيفي مطر" مثله مثل أي فلاح، يقنع برزقه ونصيبه، ويعيش بكرامته بعيداً عن السعار المجنون الذي يغلف حياة المتهافتين على الشهرة،الباحثين عن المنافع والمصالح فى السوق الراكد، أعنى سوق الفكر والأدب. لذا فإن ضجيج القاهرة فيما أتصور لا يعنيه، والبحث عن نقاد يكتبون، فينالون فى البداية كل ود وترحيب، وفى النهاية كل سخط وتحقير؛ مسألة لا تهمه من قريب أو بعيد.

ولعله أدرك بعد أن تجاوز السبعين، وبعد أن عرف كثيرين فى مصر وخارجها، أن الأمور لا تمضى- وفقاً لمعايير حقيقية، ولا تسير بناء على أسس منطقية،وفى يوم من الأيام، كان "الهالوك" يصم الآذان، و"الأدعياء" يملأون الدنيا صخباً، ولكنهم جميعاً قد "ذهبوا مع الريح"، ولم تبق إلا الأشجار الحقيقية المثمرة.

وعلى أية حال، فإن "قناة النيل الثقافية" حين تنتج فيلماً عن حياة "محمد عفيفي مطر" بعنوان "رباعية الفرح"؛ فإنها تستحق الشكر والامتنان، لأنها قدمت رجلاً يعيش فى قريته البعيدة عن أضواء العاصمة، ويحيا مع "الساقية" التى تطورت إلى آلة حديثة توفر الحيوان والوقت، ويرتدى جلباباً بلدياً بسيطاً، ويسكن منزلاً ريفياً متواضعاً، ويركب قطاراً شعبياً لا يعرف التكييف ولا الياقات المنشاة، ويهتم بقرى الدلتا التى عمل فيها مدرساً، وتل الفراعين أو مدينة "بوتو" الأثرية القديمة بما تحمل من رؤى ودلالات وحكايات.. وتحت هذه الظروف يقول شعراً، ويقرأ شعراً، ويتابع أحوال العالم من خلال الكتاب.

لقد عرفت "محمد عفيفي مطر" من خلال مجلة "سنابل" التى استوعبت مجموعة من الأدباء الشبان أواخر الستينيات صاروا أو صار بعضهم الآن من الأعلام والمشاهير- وكان يتبناها الشيخ "عقيل مظهر" سكرتير محافظة كفر الشيخ الأسبق رحمه الله وقد نشر لي أكثر من موضوع مسبوقاً بلقب "المقاتل" كنت آنئذ مجنداً بالقوات المسلحة - وكان الناس يتوقون ليوم يستردون فيهم كرامتهم التى انسحقت تحت الأحذية اليهودية الغازية، ولم تكن "سنابل" أقل حرارة فى أشواقها للحرية من جموع الشعب، فكانت "شرنقة النار" تعبيراً عملياً عن هذا التوق، حباً للشهادة وأملاً فى النصر.

لقد وئدت "سنابل"، واتهم البعض "يوسف السباعي" رحمه الله بإغلاقها،وما أظنه فعل ذلك، فقد كانت المسألة أكبر من ذلك، ولكن وأْدَها، صاحبه رحيل الشاعر، واغترابه، واتخاذه موقفاً خاصاً، حتى عاد إلى الوطن والقرية، يتابع حياته، ويخدم السيد الذي يحبه وهو "الشعر"، بالطريقة التى يراها.

قيل كلام كثير عن علاقة شعره بشعر "أدونيس"، وتأثره به، وتأثر الشبان بواحد منهما، ولكن القوم لا يريدون أن يفقهوا المسألة على وجهها الآخر المسكوت عنه، الذي يؤكد أن الرجلين مختلفان، فكراً ومنهجاً. مطر يبحث عن نفسه وقومه فى التاريخ والجغرافيا والفلسفة والتصوف والعلم والفلك والأسطورة، وأدونيس يبحث عن "طائفته" وحدها، فى زوايا التاريخ الإسلامي المعتمة والقلقة والشائكة، ويحلم بقهر من يسميهم "الغربان" و"الجراد" و"الرمل"، ويبدو أن حلمه سيتحقق بفضل أشرار العالم الذين يملكون القوة والهيمنة! ويكفى هذا الفارق.

كنت أتمنى أن يسأل بعض الحاضرين عن "موسيقى الشعر" وله فيها رأى جديد حدثني عنه قبل سنوات، ولكن القوم كانوا مشغولين بالبريق، وهجاء الواقع الإعلامي والثقافي، وهو أمر لم يعد مجدياً بحال من الأحوال.

*** ***

رابعاً: الأدب المصوّر

- الفلاح في مسلسلات التلفزيون
- إمام الدعاة
- الحوار في الدراما

إمام الدعـاة

تقوم الدراما التلفزيونية بدور مهـم فى البنـاء الفكـري والسـلوكي لأغلبيـة المشاهدين، وخاصة من الأجيال الجديدة التى افتقدت فى معظـم الأحيـان القـدوة والأسوة فى البيت والمدرسة والمجتمع!

ولاشك أن مسلسل "إمام الدعاة" الذي يقدم حياة العـالم والداعيـة الكبـير الشيخ "محمد متولي الشعراوى" رحمه الله قد حقق تفوقاً كبيراً على بقية المسلسـلات المعروضة على الشاشة الصغيرة فى شهر رمضان المبارك، مع ما لقيه عرض المسلسل من مشكلات كادت توقفه أو تمنع عرضه، بالإضافة إلى وقت عرضه متأخراً بالليل فى فترة توصف بقلة المشاهدة، وإعادته فى النهار فى فترة مشابهة.

والشيخ الشعراوى يمثل صورة طبيعية لعالم الدين عرفها المسلمون منذ بداية الدعوة، وإلى ما شاء الله، فهو الرجل البسيط، الذي يعمل بعلمه، ولا يعيش الفصام الذي يقع فيه بعض أدعياء الدين. هو مسلم فى بيته وعمله ومجتمعـه، وهـو إنسـان بكل ما فى الإنسان من قوه وضعف، وبهجة وحزن، وأمل وألم، يقابـل الكثـير مـن المشكلات والمعضلات، ولكنه يواجهها بروح الإسلام ومنهجـه، فينتصـر عليهـا ويتجاوزها.

لقد عرف الناس الشيخ الشعراوى عبر التلفزيون، ومن خلال برنامجه الـذي يقدم خواطره حول القرآن الكريم، فيقدم لهم صورة بسيطة ومدهشة لمعاني الآيات الكريمـة، قربـت المفـاهيم القرآنيـة لبسـطائهم وخاصـتهم، وجعلـت كثـيراً ممـن يخاصمون الإسلام عن جهل به، أو فهـم غـالط، يـرون قـيم الإسـلام وأسسـه فى صورتها المضيئة، ووجهها الحقيقي، وهو ما أدى إلى تراجع العديد مـن الافـتراءات والأباطيل التى كانت تروج ضد الإسلام وحقائقه. ثم إن ظاهرة الشيخ الشعراوى لم تقف عند حدود مصر والبلاد الإسلامية، بل تجاوزتها إلى العالم الغربي الذي فسـر الظاهرة تفسيراً ينبع من مصالحة ونظرته إلى الإسلام والمسلمين، وهو تفسير سـلبي

في مجموعه، بسبب ما يسببه الوعي بالإسلام من حرص على استقلال بلاد المسلمين، والعمل على النهضة الشاملة ،وهو مايشكل خطرت على مصالح الغرب الطامع وإستراتيجيته!

ومع ما قد يوجه إلى المسلسل من بعض السلبيات الفنية، فإنه فى مجموعة العام، قد حقق أداءً فنياً شائقاً جذب الأنظار والأسماع لمتابعته، والاستمتاع بسيرة عالم دين يعيش كما يعيش بقية الناس، ورؤية دروس تربوية وسلوكية تقدم البديل لحياة مشوهة، يصنعها وعى قاصر، أو فهم محدود، أو تصور خاطئ.

حتى كتابة هذه السطور، رأينا فى المسلسل فتى يطمح إلى العلم والمعرفة خارج إطار الدروس الرسمية التى يتعلمها فى معهد الزقازيق الديني، ويتمتع بذكاء ملحوظ وبديهة حاضرة، وحس وطني يجعله يندرج فى سلك حزب "الوفد"، ويدخل السجن بسبب وطنيته، وتظهر عليه علائم الموهبة الأدبية والشعرية، فينظم شعراً معبراً عن اللحظة والمرحلة والتجربة، وفى عمله يكون مثالاً للمدرس الجاد الموهوب مما يثير حفيظة بعض زملائه، وتتبلور فى مراحل حياته اللاحقة بعض المواقف الحاسمة والمؤثرة. منها موقفه الأساسي من الدعوة، فهو يعد نفسه صاحب رسالة، وليس طالب مال من وراء الدعوة،وهو ما رأيناه عندما منعته الإذاعة المصرية من إلقاء أحاديثه الدينية، ولم يستجب لرجاءات الشيخ المهدي الذي أسدى إليه كثيراً من المعروف، مع أنه كان حينئذ فى أمس الحاجة إلى المال، وكان يقترض من صديقه التاجر ليغطى نفقات أسرته. ثم إنه حين سافر إلى مكة المكرمة ليعمل فى كلية الشريعة، ورأت السلطات هناك ضرورة نقل مقام إبراهيم من جوار الكعبة،فقد اعترض ووقف موقفاً صلباً كاد يعرضه للعودة إلى مصر، ولكنه كتب للملك برقية تكلفت مرتب شهر كامل، لأنه رأى أن نقل المقام مخالف للشريعة، واستطاع أن يحسم موقفاً، كانت آثاره لو لم يحسم ستمتد إلى بعيد! ومنها موقفه من تعديل قانون الأزهر الذي كاد يحول الأزهر بمؤسساته إلى مجرد إدارة تابعة لوزارة

الأوقاف، وبينما كان شيخ الأزهر ترتعد فرائصه حين زاره مندوب من مجلس قيادة الثورة؛ فإن الشعراوى لم يخف وضغط على شيخ الأزهر كي لا يوافق على التعديل، وكي لا يوقع بياناً يستنكر آراء المعارضين للتعديل، وحين هدده شيخ الأزهر بأنه لن يكون مديراً لمكتبه. لم يتراجع، وقال : سأعود مدرساً فى معهد طنطا، فقال شيخ الأزهر، قد تذهب إلى بعيد، فرد الشعراوى: فى أي مكان سيكون الله هناك.

عندما قتل أخوه، وسعى أبوه إلى الأخذ بالثأر، ومع قسوة الفقد ،وشهوة الانتقام فقد التزم بمنهج الإسلام فى العفو وحقن الدماء، وامتد الأمر ليحقن الدماء فى قريته كلها.

الشيخ الشعراوى يغضب من أولاده ، ويعيش آلام أمه التى تزوج عليها أبوه، ولكنه لا ينسى العدل والإحسان والبر بأبيه وأمه وزوج أبيه.. ويسعى إلى مساعدة المحتاجين والمشاركة فى قضايا المجتمع الريفي، ويشارك الإخوة النصارى فى أعيادهم، ويكتسب محبتهم وتقديرهم.

لا ريب أن الفنان "حسن يوسف" قد أدى دوراً فريداً ورائعاً حين تقمص الشخصية التى كان يحبها، وكان قريباً منها، ولا ريب أن السيدة "سميرة عبد العزيز" أدت دور الأم الريفية باقتدار، وحققت من خلاله صورة الفلاحة الطيبة المؤمنة، ولعل كثرة أدائها لدور الفلاحة فى مسلسلات الإذاعة والتلفزة، جعلها على هذه الهيئة المحكمة لأم ريفية تضحى وتصبر وتحصد نعمة رؤية الابن والأحفاد فى أحسن حال. أما السيدة "عفاف شعيب" فقد اقتربت من دور الزوجة المتفانية التى تقدر مسئولية زوجها، وتتحمل معه عبء تربية الأبناء، وتصبر على فراقه الطويل،ولا تصدر عنها كلمة نابية أو حانقة، وتوصى ابنتها باحترام زوجها والوفاء له، وهى على كل نموذج تحتاجه البيوت المصرية التى شاعت فيها الخلافات الزوجية والمشاحنات الأسرية لأتفه الأسباب. نحن نشكر حسن يوسف والفريق الذي معه، فقد قدموا لنا عملاً محترماً يخدم الإسلام والوطن جميعاً.

*** ***

الفلاح في مسلسلات التلفزيون

يبدو الفلاح المصري في مسلسلاتنا التلفزيونية وإلى حد ما فى السينما نمطاً غريباً، وكائناً مصطنعاً، لا وجود له على أرض الواقع، إنه نمط كاريكاتوري فيه من الخيال أكثر مما فيه من الحقيقة، وكائن يحمل ألواناً وأصباغاً وملامح ليست له. أقول هذا لأني فلاح أعيش فى القرية وأتابع تغيراتها- ولا أقول تطورها- منذ نصف قرن أو يزيد، أي منذ وعيت وأحسست بالعالم الخارجي حتى الآن.

الفلاح مظلوم على أرض الواقع، ومظلوم على شاشة التلفزة، فنصيبه فى الحياة قليل، وحظه فى التمثيل محدود، مع أنه يمثل أغلبية السكان وأكثرية الشرائح الاجتماعية..حتى لو تخلى عن أرضه، وذهب إلى المدينة يبحث عن عمل أو رزق أفضل، فهو يبقى فلاحاً فى الروح والسلوك، والقيم والملامح.

عندما أرى مسلسلاً على شاشة التلفزة يتناول الفلاح وحياته، أحتشد له، وأتابعه باهتمام، وأسعى من خلاله لرؤية الريف ومشكلاته الحقيقية. وللأسف الشديد أعود بخفي حنين، وأصاب بإحباط شديد، مع أن معظم كتاب هذه المسلسلات فلاحون أساساً، أو يفترض أنهم كذلك، حتى لو عاشوا فى العاصمة التى سافروا إليها بملابس متواضعة وأحذية ممزقة، وصاروا أو صار معظمهم يسكن فى شقق فاخرة، أو ينتقل أحياناً إلى فنادق "خمس نجوم" من أجل التغيير والترفيه.

الفلاح المصري اليوم يعيش مأساة مركبة. كان فى الماضي يعانى من الإقطاع والمرابي اليهودي أو الخواجة ، اليوم تضاعفت محنته حين يبذل الجهد فى الزراعة ولا يجد عائداً يتكافأ مع هذا الجهد بسبب هزال أسعار المحاصيل التى تشتريها الحكومة،وحين يجد "بنك القرية" قد حل محل المرابي اليهودي أو الخواجة، وحين يجد بعد ذلك مشكلاتٍ قاهرة مزمنة تتمثل فى الزحام وضيق الرقعة الزراعية وأزمة الإسكان ومشكلة المشكلات المتمثلة فى الصرف الصحي، وتغير القيم واللهاث

وراء المادة وانتشار البطالة والمقاهي وأوكار القمار وعروض الأفلام المخلة والإدمان، فضلا عن غربة كثير من الآباء والأبناء والأمهات في الخليج وغيره ..

إن مشكلات القرية، لم تعد ممثلة في العمدة الجبار الذي يسعى إلى شراء أراضى الفلاحين والتحالف مع الأشقياء وموت العاطفة لديه لدرجة إدخال أولاده مستشفى المجانين، كما تذهب بعض المسلسلات، ولكنها تكمن فى الحياة التى صارت معقدة. وانتقال أبناء القرية من الحياة البسيطة السهلة إلى حياة أخرى،ليست هي الحياة المدنية ولا الحياة القروية. إنها حياة الاستهلاك دون حياة الإنتاج، وحياة الطموح دون امتلاك أسبابه.. هل سمع كتاب المسلسلات الريفية عن القرية التى صارت الآن تشترى الخبز من المدينة، وتشترى اللبن من المدينة، وتشترى اللحم والسمك من المدينة، ولم تعد الأفران البلدية فيها توقد بالحطب لصنع الخبز "المبطط" و"البتاوى" و"فطير الذرة" "والفطير المشلتت" و"الأرز المدسوس"..؟.. لقد تلاشى الريف القديم أو كاد، وصرنا في ريف يأنف شبابه من ارتداء الجلابيب مثلى، ومثل الآباء والأجداد، ويذهبون إلى الحقول بالقمصان والبنطلونات.

ضحكت عندما رأيت مسلسلاً يقايض فيه بعض الفلاحين صاحب دكان فى القرية مسجلاً (كاسيت) بجاموستهم التى يعيشون على ما تدره عليهم من لبن وسمن وجبن، كي يستمعوا إلى شريط صوتي بعث به ابنهم الذي يعمل في الخليج! أظن أن أهل الريف ومنذ أوائل الستينيات عرفوا الراديو والتلفزيون والمسجلات، وتعاملوا معها دون رهن جواميسهم وأبقارهم وحميرهم!

إن احترام عقلية الجمهور مسألة ضرورية فى الفنون التمثيلية وغيرها،واحترام الكاتب لنفسه مسألة أساسية، وتفرض عليه أن يكتب ما يعرفه ويتفق مع موهبته. "نجيب محفوظ" مثلاً لم يكتب عن الريف لأنه لم يعش فيه، وقال ذلك صراحة فى عديد من أجوبته على سؤال بهذا المعنى. والكاتب الذي يفتقد

الموهبة الحقيقية، وتطغى عليه أفكار سياسية أو أيديولوجية يريد الترويج لها عبر الفن، يفسد عمله، ويخفق تماماً، فالفنان أو الكاتب الموهوب هو الذي يملك القدرة الفنية على الإقناع، دون خطب أو هتافات.

مع أن "إحسان عبد القدوس" لم يكن فلاحاً، فإن شخصية "عبد الغفور البرعى" فى مسلسل " لن أعيش فى جلباب أبى" جاءت متسقة مع طبيعة الفلاح البائس الذي قدم إلى المدينة بحثاً عن لقمة العيش، وجاءت صنعة كاتب المشاهد والحوار "السيناريو" لتقدم لنا شخصية مقنعة دون ادعاء أو افتعال، ولعل "محمد عبد الحليم عبد الله" أفضل كتاب الرواية والقصة الذين عبروا عن الريف الحقيقي، وصنع فلاحين حقيقيين، لا يخطبون ولا يهتفون، بقدر ما يقدمون صورة إنسانية للفلاح المصري، ليست قاصرة على الشكل الخارجي وحسب، بل من الداخل العميق الذي يمور بالمشاعر والأحاسيس، والأفكار والتصورات، والأحلام والآمال، ولا أدرى لماذا يتجاهله كتاب السيناريو، مع أن الرجل رحمه الله لديه رصيد محترم من الروايات والقصص القصيرة التى تفوق كثيراً هذا الغثاء الريفي الذي "يتحفنا" به التلفزيون بين حين وآخر.

ومن المفارقات التى تلتبس مع تصوير الريف فى المسلسلات التلفزيونية؛ تقديم المرأة الفلاحة فى شكل مضحك، فهي تلبس الجلباب الطويل، وتمضى حافية، ومع هذا نجدها تستخدم الرموش الصناعية وطلاء الأظافر وأحمر الشفاه الفاقع والباروكة وأشياء أخرى من هذا القبيل، لا تتفق مع الواقعية أو الواقع الحقيقي في الريف.

أتصور أن معالجة قضايا الريف تقتضى من التلفزيون أن يعقد لها الأولوية، ليس لأنها تعبر عن القطاع الأكبر فى الوطن، ولكن لربطها بمسألة الزراعة فى جوانبها الخطيرة والمؤثرة على مستقبل الشعب، مع الإلحاح على ربط هذه القضايا باستصلاح الصحراء وإنشاء مجتمعات ريفية جديدة، والاكتفاء الذاتي بالطعام أو الغذاء. ولا أراكم الله مكروها فى مسلسل يتحدث بافتعال عن الريف وسكانه.

الحوار في الدراما

الحوار في الدراما السينمائية والتلفزيونية والإذاعية والمسرحية يمثل ركناً مهماً من أركانها، حيث يفصح في الغالب عن تاريخ الشخصيات الدرامية أورؤيتها للأحداث، أو خططها للمستقبل، أو يعبر عن مدى ثقافتها وقدراتها الفكرية والذهنية والأدبية. وترجع أهميته في الأعمال الدرامية بصفة عامة إلى التأثير في المتلقي بما يريد الكاتب توصيله إليه من أفكار وقيم وعادات وسلوكيات.

والحوار الجيد هو الذي يتوافق مع المستوى الثقافي للشخصية الدرامية،ويتلقاه المشاهد أو المستمع بسهولة ويسر، لأنه في هذه الحال يعبر عن مستوى واقعي يرقى به الكاتب من خلال الاختيار والانتخاب للفظة والمفردة والتركيب والصورة، ويحقق في النهاية صياغة فائقة ذات قيمة وتأثير.

وإذا ضربنا مثالاً بشخصية درامية قريبة إلى الأذهان يتحقق من خلالها الحوار الفائق، باللغة الفصحى الراقية، فهي شخصية "عمر بن عبد العزيز" التى أداها الممثل "نور الشريف"، فقد جرت اللغة على لسانه سهلة سلسلة، بعيدة عن التقعر والفضلات، ممتزجة بالتصوير الحيّ المؤثر، بحيث كانت شرائح المجتمع على اختلاف ثقافاتها وأعمارها وطبقاتها تتفاعل مع الحوار،وتنفعل به، ولديها استعداد لسماعه مرات عديدة، ولا أخفى أنني كلما شاهدت حلقات المسلسل تذاع على شاشة أية قناة، فإني أتحول إليها على الفور، ففي الحوار البارع الذي كتبه الراحل "عبد السلام أمين"- رحمه الله- سحر وموسيقى وقوة بيان وسمو بلاغة.

على العكس من ذلك نرى "نور الشريف" نفسه، وهو يمثل دور العقيد حسام (ضابط مباحث) في فيلم (الكلام في الممنوع) يهبط بمستوى الحوار والتمثيل أيضا إلى درجة غير مقبولة، على الأقل من ضابط شرطة يتسم بالضبط والربط،والجدية في القول والسلوك، لقد تناثرت على لسانه في الحوار مفردات بذيئة شكلت معجمه الذي يخدش الآذان والعيون جميعاً دون مسوغ فني أو أسلوبي،

فهناك من هذه المفردات ما يمكن استخدامه في موضعه بطريقة فنية بعيدة عن الابتذال والترخص، ولكن حوار الفيلم من خلال شخصية الضابط جاء مرادفاً للسوقية والحوشية، وجعله مباراة في فن الهجاء أو "الردح" باللهجة العامية.

قضية الحوار في الفنون الدرامية، ليست مرتبطة بالمذهب الواقعي، الذي يطابق ما يجرى على أرض الحياة من شخصيات وأحداث ولغة وأفكار.. فالواقعية المطابقة إذا أمكن احتمالها في مجال الفنون المكتوبة، فإن احتمالها في الفنون المرئية والمسموعة يبدو أمراً صعباً وغير مقبول.. والواقعية الجيدة بألوانها المختلفة، التى تزيد على ثلاثين لوناً، تقوم على الانتخاب والاختيار من الواقع لتقدم الصورة الجميلة والفكرة الممتعة والشخصية المقنعة.. والفنون الدرامية في كل الأحوال،تجاوز مهمة تقديم الترفية إلى مهمة التربية. إن الناس قد لا يتأثرون بآلاف الخطباء والوعاظ الذين لا يتقنون مهمة الدعوة والإرشاد، ولكنهم يتأثرون بفيلم أو مسرحية أو مسلسل، سواء كان جيداً أو رديئاً.. ومن هنا تأتى أهمية رقى الحوار في التعبير، وابتعاده عن الابتذال والسوقية، لأن المفردة أو اللفظة أو العبارة تصك الأسماع فتلتصق بها، ويقلدها الصغار، والكبار أحياناً، وتدخل إلى معجم الحياة اليومية، وقد لا تخرج منه أبداً، بل تتأكد وتتكاثر إذا توافرت أعمال درامية تنهج أسلوب الحوار نفسه وتتبناه، مما يحول لغة المجتمع إلى لغة بذيئة وقبيحة، يعتادها الناس دون احتجاج!

اللغة الراقية المحترمة تعبير عن مستوى ثقافى راق محترم، والعكس صحيح أيضاً، لذا أعجب من بعض كتاب الحوار في الدراما بألوانها المختلفة حين يصرون على البحث عن المبتذل والقبيح من الألفاظ والمفردات، في صورة شتائم أو مزاح سخيف أو خطاب اجتماعي واستخدامها، دون ضرورة فنية أو خلقية أو تربوية،ودون إتاحة الفرصة لمعجم مقابل يعبر عن الرقى والاحترام،أو يستنكر

الابتذال والقبح، أو يعطى إيحاء مؤثراً بأن المبتذل أوالقبيح ليس اللغة الصحيحة ولا الطريقة المناسبة للكلام أو الحوار.

في الأفلام القديمة التى سبقت الموجة الواقعية الدميمة، وموجة أفلام المقاولات أو الأفلام التجارية كما يطلق عليها، كانت الألفاظ راقية، والعبارات سامية، والمستوى التعبيري للشخصيات يشعرك بالاحترام والجمال، حتى في أفلام الكوميديا التى يغلب عليها المزاح والتنكيت وما إليها، بل أن بعض أفلام يوسف وهبي وحسين صدقي وليلى مراد وفاتن حمامة ومحمد عبد الوهاب، يشعرك بقيمة اللغة وأهميتها دون افتعال أو تكلف.

قد يقول قائل: إن ما تتحدث عنه كان نتاج زمان جميل، تتساوق فيه نظافة الشوارع، مع تضامن المجتمع، مع تغلغل القيم الخيرة، مع النزعة الرومانتيكية، مع... وكان لابد للحوار في الأعمال الدرامية أن يكون منسجماً مع العناصر السابقة، أما الآن فالدمامة تغلف كل شيء، الشوارع والسلوكيات والمجتمع والزحام والسكن والعمل والحياة بأسرها، لذا لابد أن يكون للحوار نصيب من هذه الدمامة.. وإذا صح هذا القول على إطلاقه، فإنه لا يصح في الفن، لأن الفن عالم من صنعنا، ويمكننا أن نصنع عالماً جميلاً يعوضنا عن عالم القبح الذي نعيشه، وهذا في إمكاننا بسهولة، ولن يكون مفتعلاً كما يتوهم البعض. فالإحساس بالجمال ينبع من كل مكان وفى كل زمان، واللغة الجميلة تستطيع – لو استخدمناها بفن وحذق– أن تطرد اللغة القبيحة، وتحل محلها، أن عالم القبح إذا ساد المجتمع أحرقه وحوله إلى رماد..

*** ***

خامساً: دوريات وقضايا

- المكتوبجى قديماً.. المكتوبجى حديثاً
- مجلة مجمع اللغة العربية
- الرسالة الجديدة.. والرسالة القديمة
- التأريخ للأدب العربي القديم
- الناقد الأدبي: ظالماً ومظلوماً
- انتهاء الحداثة وتجليات العولمة !

المكتوبجى قديما.. المكتوبجى حديثا

هو كتاب طريف حقاً، ومثير للمواجع حقاً، أهميته ليست متعلقة بالماضي، بقدر ما هي ملتصقة بالحاضر الذي يعيشه العرب والمسلمون، فوظيفة "المكتوبجى"، أو الرقيب على الصحافة والفكر، لم تعد قاصرة على "موظف" تعينه السلطة، بل تجاوزته إلى آخرين، رسميين وغير رسميين.

"المكتوبجى" تأليف الصحفي الأديب "سليم سركيس" صدر قبل انتهاء القرن التاسع عشر بأربع سنوات ونشرته جريدة "القاهرة" فى منتصف يناير 2003، يمثل أول محاولة لتسجيل موقف للرقابة على الصحف فى أواخر عصر الدولة العثمانية، وبداية انهيارها، واشتداد متاعبها ومتاعب رعاياها تحت حكم "السلطان عبد الحميد"، الذي يوصف بالخليفة المظلوم؛ نتيجة لموقفه من الصهيونية وعدم تفريطه فى فلسطين، مقابل إنقاذ دولة الخلافة من الإفلاس الاقتصادي.

أحوال الرقيب الصحفي التي سجلها "سليم سركيس" فى"المكتوبجى"؛ تبدو فى طرائفها وآثارها نماذج مصغرة للغاية، لما جرى على امتداد القرن العشرين وما بعده إلى يومنا، وإلى غد لا يعلمه إلا الله، صحيح أن هذه النماذج تحمل مضحكات مبكيات، وفيها ما يمكن أن نعده من المقولات التى تحمل وجهة نظر يمكن قبولها مثل : عدم كتابة الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة على صفحات الصحف، خوف أن تلقى على الأرض فيدوسها الناس وتمتهن الآيات والأحاديث.. بيد أن واقع العرب والمسلمين اليوم لا يقدم إلا المبكيات فى مجال "المكتوبجى".

حدثني كاتب كبير من قطر شقيق، أنه استخدم كلمة "إضرابات" في قالته التي تنشرها جريدة في وطنه، فما كان من رئيس تحرير هذه الجريدة إلا أن غيرها

بكلمة "احتجاجات" خوف أن يؤاخذه ولاة الأمر الثوريون؛ الذين يحرمون الإضرابات في وطنهم الثوري!.

في السبعينيات، كنت أشارك فى تحرير إحدى المجلات الشهرية، وكان الرقيب رجلاً فاضلاً ومتفهماً وكان يقرأ الموضوعات التى تنشرها المجلة قبل صفها أو جمعها كلمة كلمة، ومن طول العشرة كان هو الذي يبادر بتقديم الكلمات أو الجمل البديلة كي تمر الموضوعات التى يرفضها الرقباء الأصاغر.

بيد أن "المكتوبجى" تطور، بعد رفع الرقابة فى مصر، وربما قبلها أيضاً، ليقوم بأدوار أكثر تأثيراً ووحشية، لأن "المكتوبجى" لم يعد الموظف الكبير أو أتباعه الذين يقبعون فى مبنى وزارات الإعلام أو الإرشاد الوطني، ولكنه صار للأسف الشديد ذلك المثقف الذي قد يمنح نفسه، أو يمنحه الآخرون من حوله ألقاباً فخمة ومجلجلة مثل : الوطني، القومي، التقدمي، المستنير، الجميل، الكبير، الرائد، العظيم، الشهير...الخ، هذا المثقف يقوم من تلقاء نفسه بدور "المكتوبجى"، ليس لتنفيذ تعليمات السلطة، ولكن لمصادرة ما يكتبه أو يبدعه خصومه أو منافسوه من فكر أو فن أو أدب، بحيث لا يطلع الناس على إنتاجهم، ولا يعرفونه. كان "المكتوبحى" قديماً، يقف عند بعض المقالات أو العبارات أو الكلمات، وقد يصل الأمر إلى المحكمة أو الحاكم الذي يعطل الجريدة بعض الوقت أو يعطلها إلى الأبد، وكان في الإمكان آنئذ أن يقوم صاحب الجريدة بإصدار غيرها باسم آخر، وفى وقت قصير، إجراءات لا تتعدى تقديم طلب إلى الحكومة على ورقة بيضاء، كما فعل عبد الله النديم،وسليم سركيس نفسه، وآخرون، ولكننا أمام "المكتوبحى" حديثاً، نجد أن الكاتب أو الفنان قد لا يستطيع أبداً أن ينشر مقالاً أو يقدم فنا طالما كان الرقيب المعاصر في موقعه الذي يتحكم فيه، في المطبوعة أو المؤسسة أو الهيئة التى تمتلك وسيلة النشر في الأقطار العربية والإسلامية.

إن توجيه الانتقاد أو المساءلة إلى الحكومة أو الحاكم يبدو أمراً صعباً بل مستحيلاً في بعض العواصم، بل إن القاعدة صارت تصدير المطبوعة أو الوسيلة الثقافية والإعلامية بعبارات المديح ومقالات الثناء على الحكومة ورجالها الأمناء الوطنيين الثوريين الصالحين المؤمنين... وبعدئذ يتم إقصاء كل من يُشتمّ منه أو فيه رائحة معارضة، ثم إذا كان خصماً أو منافساً للمسئول عن الأداة الناقلة للفكر والرأي والإبداع، أو ممن يستثقل ظله، فلن يظهر له تعبير مكتوب أو مسموع أو مرئي ، مع أن هذه الأداة الناقلة ملك للشعب كله، للناس أو المواطنين جميعاً.

كان "سليم سركيس"، يسب السلطان، ويهجوه، ويقذع فى الهجاء، وأقصى ما كان يحدث له هو إغلاق صحيفته أو محاكمته، ولكنه كان يجد المجال لإصدار صحيفة أخرى، أو يهرب من تنفيذ الحكم إذا كان بالسجن إلى ولاية أخرى من ولايات الدولة العثمانية. أما اليوم فأين المفر؟ إن الدول العربية لا تطيق معارضاً بالمعنى الحقيقي للمعارضة، وإذا كان بعضها يقبل المعارضة على مضض، فالبعض الآخر قد يذهب إلى قطع العلاقات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية، مع دول أخرى تؤوى معارضاً أو تنشر مقالاً معارضاً أو تذيع برنامجاً تلفزيونياً معارضاً، وذلك بالطبع بعد تجنيد مؤسسات الدولة فى الداخل والخارج لمواجهة الأمر الجلل-أعنى الشخص المعارض أو الوسيلة المعارضة!

الدول الغربية ومعها الكيان الصهيوني ليس فيها "مكتوبجى" يمارس عمله ضد أهل البلاد أو سكانها، الذين ينتمون إلى حكومتها، وإن كان بها "مكتوبجى" ضد الآخرين خارجها أو غير سكانها أو الذين ليسوا من جنس الحكومة. أما فى البلاد العربية والإسلامية، "فالمكتوبجى" يزدهر، ويتفرع، وينمو،ويتجاوز الحكومات والحكام، ليقوم به نفر من المثقفين الذين يفترض أنهم مع التعدد والتنوع والاختلاف، ولكنهم للأسف يعملون على طريقة : الحرية كل الحرية لأنصار

الحكومات، والموت كل المـوت! لخصـوم الحكومـات، وخصـوم الفكـر، وثقـلاء الظل، والمنافسين بصفة عامة.

إن "المكتوبحى" المعاصر، لا يوجه نظره غالباً إلى أعداء الـبلاد فى الخـارج، المتربصين بها، ولكنه يركز على الخصوم المستضعفين فى الداخل!.

*** ***

مجلة مجمع اللغة العربية

حسناً فعل مجمع اللغة العربية، حين نشر على الناس بعضاً من أعداد مجلته القيمة التى صدرت قبل نصف قرن تقريباً، فظهر مع باعة الصحف العدد الثامن أو الجزء الثامن الذي طبعته مطبعة وزارة التربية والتعليم عام 1955، ويقع فى 570 صفحة من القطع الكبير، والجزء التاسع الذي طبعته المطبعة الأميرية بالقاهرة عام 1957، ويقع فى 311 صفحة من القطع نفسه، والجزء العاشر الذي طبعته مطبعة التحرير بالقاهرة عام 1958، ويقع فى 300 صفحة من القطع ذاته.

وأحسب أن توزيع مجلة المجمع على الجمهور فى هذه الآونة، يمثل لفتة طيبة يستحق أصحابها الشكر والتقدير، حتى لو كانت الأعداد أو الأجزاء التى طرحت على الناس، تحمل تاريخاً قديماً، فنحن الباحثين والقراء أحوج ما تكون إلى المادة التى تضمنها هذه الأجزاء، لأنها مادة متجددة، جادة، جيدة، كل كلمة فيها وراءها جهد ووعى ومعرفة، ويكفى أنك لا تجد خطأ مطبعياً أو إملائياً، إلا نادراً، وهو من قبيل الاستثناء الشاذ الذي يفرضه النقصان البشرى، سهواً أو رهقاً. ولا أريد أن أقارن هذا الاستثناء بالقاعدة التى باتت تحكم مطبوعاتنا اليومية والأسبوعية والشهرية التى تكتظ بالأخطاء من كل صنف ولون.. حتى العناوين لم تعد تسلم من الأخطاء، وهو ما يفسر بصورة ما إلى أي مدى وصلت أحوالنا العامة والخاصة، ولله فى خلقه شئون!

إن مجلة المجمع، مع تواضعها وبساطتها فى الشكل والإخراج، تعطى ملامح العمل الصامت المثمر، الذي لا يعلن عن نفسه، ولا يهتم به إلا نفر قليل من الناس، هداهم الله إلى حب اللغة وآدابها، فصبروا على هذا الحب الذي لا يعطى مقابلاً غير لذة المعرفة والاكتشاف، وأعظم بها من لذة، لو يعرفها أهل "الفهلوة" لقاتلوا عليها.

تعد المجلة صورة من السلوك الراقي المهذب لأعضاء المجمع، فهي تفيض أدباً ورقة واحتراماً، فى معجمها وأسلوبها ومادتها، ولك أن تقرأ الكلمات (وهى ليست كلمات ولكنها بحوث راقية) فى استقبال الأعضاء الجدد والإشادة بعلمهم وفضلهم وجهودهم، ثم كلمات هؤلاء الأعضاء فى الرد على مستقبليهم وتواضعهم فى التعبير عن أنفسهم وأعمالهم، واستعدادهم للمشاركة والتنفيذ... ثم الكلمات التى تتحدث عن الراحلين من الأعضاء وتقدير ما قاموا به فى أثناء عضويتهم.. إن كلمات هؤلاء جميعاً تقدم نمطاً مغايراً للكلمات السائدة فى الحياة الأدبية والفكرية التى تقطر فى بعض الأحيان عنفاً وخشونة ونفاقاً.. إنها هنا داخل المجمع ومجلته تفيض وداً وصدقاً وإخلاصاً من أجل العلم والمعرفة.

من يتأمل مادة المجلة يتيقن تماماً، أن التهم التى تلقى على المجمع جزافاً بأنه بعيد عن حياة المجتمع الثقافية، وأنه يعزل نفسه عن القضايا المثارة فى الحقل الأدبي ،وأنه يعيش فى الماضي أكثر مما يعيش فى الحاضر أو المستقبل، لا أساس لها فى حقيقة الأمر، فالقوم لهم دائرة يعملون من خلالها هي اللغة وآدابها، سواء ارتبطت الظواهر محل البحث بالماضي أو الحاضر أو المستقبل.

لنا أن نقف على بعض نماذج الاهتمام فى المجمع ومجلته من خلال الجزء العاشر مثلاً، لنرى إلى أي مدى يعالج الأعضاء ظواهر متنوعة فى اللغة وآدابها، وتلخص كلمة "الأستاذ الدكتور منصور فهمي" كاتب سر المجمع نماذج الاهتمام المجمعي؛ فبعد أن يترحم على الراحلين من الأعضاء، ويرحب بالأعضاء الجدد، يتناول الاهتمام بخدمة اللغة العربية، ويراه استجابة طبيعية ليقظة الوعي القومي المتزايد، لأن اللغة هي أول ما تحرص عليه الأمم من مظاهرها ومشخصاتها، ولقد تجلى هذا الحرص الكامن فى نفوس الناس فى أقوال وأفعال. ولا يغيب عن منصور فهمي ، ما يقال عن المجمع فى خارجه، ويشير إليه فى لغة هادئة لا تعرف الغضب أو السخط، فهو يرى ما يقال نوعاً من المزاح أو الدعابة التى ترمى إلى حفز الهمم

العاملة، واستفزاز الجهود، والاستزادة من السعي والمجهود.. ثم يستعرض "منصور فهمي" جهود المجمع فى بحث الكلمات الجديدة والمواصفات المستحدثة التى بحثها المجمع واختارها فى السنين الماضية، ويضرب أمثلة على شيوع الكلمات المجمعية، ومنها: اللجنة والجريدة والمجلة والسيارة والدبابة والدراجة والقاطرة والبرقية والهاتف... إلى عشرات من أمثال تلك المصطلحات التى يعلم الله كم تنادر عليها المتفكهون يوم سيقت لأول مرة، وكم كان لها من منكر على نحو المنكرين اليوم للجديد والمستحدث من كلمات المجمع وغير المجمع.

لا أستطيع أن ألخص كل ما قاله "منصور فهمي" عن جهود المجمع وأعماله، ولكنى اكتفى بنقل العبارة الخاتمة لكلمته الطويلة حيث يقول :

"وإذا كان المجمع يمثل نزعة الأمة العربية فى توثبها اللغوي والثقافي، فهو على يقين من أنه يلقى من قادة الرأي والحكم في العروبة كل مناصرة ومؤازرة وتأييد. وفقنا الله جميعاً لما فيه الخير. آمين".

*** ***

الرسالة الجديدة.. والرسالة القديمة

مجلة "الرسالة الجديدة" من المجلات الأدبية المهمة التى صدرت فى أوائل الخمسينيات (أبريل 1954) عقب توقف مجلتي "الرسالة" التي كان يصدرها "أحمد حسن الزياتِ" ، و"الثقافة" التي كانت تصدرها لجنة النشر للجامعيين ورأس تحريرها عدد من كبار الأدباء والمثقفين آنئذ: أحمد أمين وزكى نجيب محمود ومحمد فريد أبو حديد.. وقد صنعت المجلتان منذ أوائل الثلاثينيات حركة أدبية عظيمة على امتداد الوطن العربي، بل العالم الإسلامي، وصارت المجلتان من علامات الوحدة الشعورية والعاطفية والحضارية بين شعوب المنطقة، لدرجة أنهم كانوا يسمون اليوم الذي تصل فيه "الرسالة" إليهم (من أيام الأسبوع) باسم "يوم الرسالة".

توقفت المجلتان كما قيل لأسباب مادية، وكانت وزارة المعارف (التربية الآن) تدعم هاتين المجلتين دعماً اقتصادياً غير مباشر، وذلك بشراء كميات كبيرة من أعدادهما عن طريق الاشتراكات السنوية، فلما توقف هذا الدعم بتوقف الاشتراكات، خلت الساحة الأدبية فى مصر والعالم العربي من مجلة أدبية قوية، وفكرت الحكومة المصرية فى إنشاء مجلة تسد الفراغ الذي جرى بتوقف "الرسالة" و"الثقافة"، وكان أن صدرت "الرسالة الجديدة" شهريا عن دار التحرير للطبع والنشر، ومديرها العام الرئيس الراحل "أنور السادات"- وكانت له علاقة بالصحافة فى فترة ما قبل الثورة ورئيس تحريرها يوسف السباعي" وهو من رجال الصف الثاني فى النظام الجديد- وسكرتير تحريرها عبد العزيز صادق.

وفى العالم العربي ظهرت مطبوعتان مهمتان، حاولتا الإسهام فى سد الفجوة هما "الأديب"، و"الآداب"، وكلتاهما صدر من "بيروت" واستقطبا العديد من الأقلام المصرية والعربية حتى توقفت الأولى بوفاة محررها وتعثرت الثانية بسبب الحرب الأهلية اللبنانية.

ولكن "الرسالة الجديدة" مدعومة بأقلام أو بقايا أقلامٍ "الرسالة" و"الثقافة"، لم تحقق ما حققته المجلتان من تأثير فى الأوساط الأدبية العربية، لذا لم تعمر طويلاً، وتوقفت بعد بضع سنوات، فضلاً عن كونها شهرية الإصدار، مما يجعل التأثير محدوداً، وكان الإصدار الأسبوعي للرسالة والثقافة يعطيهما قوة الحضور فى وجدان المتابعين.

وفى سلسلة "صحافتنا الأدبية" التى تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب بإشراف الدكتور عبد العزيز شرف(رحمه الله) ، أعيد إصدار مجلة "الرسالة الجديدة"- المجلد الأول- إبريل / ديسمبر 1954، وأظن أن إعادة الإصدار مهمة بالنسبة للباحثين المتخصصين والأجيال الجديدة من القراء كي يطلعوا على صورة الأدب والأدباء فى تلك المرحلة التى كانت لما تزل تحظى بقوة دفع أدبية خلاقة، تتمثل فى القدرة على الإبداع الجيد والجاد، والتمتع بقدر كبير من الحرية الفكرية والحلم الحضاري، والاهتمام بالتثقيف العميق سواء فى الوعي بالتراث أو هضم المعرفة الأجنبية وتمثل العناصر الصالحة فيها.

لقد كتب فى العدد الأول من الرسالة الجديدة أعلام الأدب فى تلك المرحلة. كتب طه حسين عن رائعة "البرتومورافيا" المسماة "الأطماع الخائبة"، وكتب محمود تيمور قصته "أم سحلول"، ونشر كامل الشناوي قصيدته "السلوان الكاذب" ومطلعها :"لا وعينيك.. يا حبيبة روحي/ لم أعد فيك هائماً فاستريحي" وهى التي غناها "فريد الأطرش" فيما بعد. وكتب عباس خضر عن "غرام الأدباء"، وكتب عبد الحميد جودة السحار قصته "الماضي يعود". ونشرت المجلة "كلمات جديدة" أقرها مجمع اللغة العربية، كما نشرت قصيدة الشاعر محمد على أحمد، وسبق اسمه رتبة "الملازم أول"، وكانت بعنوان "سنحيا مرة أخرى"، ونشر لويس عوض مقالة بعنوان "الإنسانية الجديدة"، وكتب يوسف السباعي عن التابعي والصاوي والحكيم، مقالة ساخرة ضاحكة بسبب اعتذار الحكيم عن عدم الكتابة فى "الرسالة

الجديدة"، كما كتب مقالات أخرى دون توقيع كامل، عن فيلم الوحش، وعن قراء الأدب رداً على ما كتبه أحمد فؤاد الأهواني بعنوان "ليس عندنا أدب". وينشر الدكتور محمد مندور مقالة من سلسلة مقالاته "نماذج بشرية" حول كتاب خان الخليلي لنجيب محفوظ بعنوان البرجوازي الصغير". ويكتب دريني خشبة عن أساطير الحب عند الإغريق، وينشر فوزي المعلوف قصيدته "العيد والحرية". ويكتب أنور أحمد عن "عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية"، ويتناول كمال الملاخ بعض القضايا الفنية مثل ذكرى مختار، والباليه.. وينشر يوسف السباعي قصة بعنوان نحيب فى الليل"، وأنيس منصور مقالاً عن الوجود والعدم عند فيلسوف إسبانياً أونا مونو. ويلخص رأفت الخياط قصة من الأدب الياباني بعنوان الملك العربيد، وهناك قصة ليوسف الشارونى بعنوان "امرأة من زف". ويتحدث جمال مرسى بدر حول "زلة شوقية" تتعلق بشعر شوقي، ويعرض محمد سعيد العريان لكتاب الأذكياء لابن الجو زى، ويكتب على أحمد با كثير تمثيلية بعنوان "مأساة ابن المقفع"، ويدور نقاش حول المؤلف الحقيقي لقصة "كليلة ودمنة". وهناك قصيدة لمحمد عبد الغنى حسن، بعنوان :"عربدة الرياح" ومقال لسامي داود حول النجاح والفشل فى برامج الإذاعة، وآخر للدكتور محمد يوسف موسى عن الأزهر والجامعة، وثالث عن وظيفة اللغة لعلى أدهم، ورابع عن الربيع لعبد القادر السماحى، وقصة لمحمد سالم "فى عالم المجانين"، ثم الحلقة الأولى من رواية "بين القصرين" لنجيب محفوظ، على مساحة ست صفحات من القطع الكبير ذي الأعمدة الثلاثة والحروف الصغيرة جداً.

لقد عرضت للموضوعات التى نشرتها "الرسالة الجديدة" فى عددها الأول،عدا الأخبار والأبواب الثابتة والمقالات القصيرة، لأوضح طبيعة التنوع والتعدد الذي جمع أسماء مختلفة، وتيارات متباينة، ورغبة حميمة فى المعرفة والثقافة.

وقد شهدت صفحات "الرسالة الجديدة" إرهاصات أو بدايات معظم الكتاب الكبار فى عصرنا، ومنهم من ذهب إلى رحاب الله منذ عقدين أوثلاثة،والباقي منهم يؤدى دوره بصورة ما، فى الحياة الأدبية والفكرية.

وإذا كنا نرحب بإعادة نشر مجلدات "الرسالة الجديدة"، فإننا نأمل أن تتوالى سلسلة "صحافتنا الأدبية" إعادة إصدار "الرسالة" و"الثقافة" لنرى صورة الأدب فى الثلاثينيات والأربعينيات، وكانت سنوات ازدهار أدبي بحق،صحيح أن هناك من أعاد إصدار "الرسالة" القديمة فى طبعة فاخرة قبل سنوات، بيعت بأسعار فلكية بالنسبة لمتوسطي الدخل، ولكن هؤلاء مع محدودي الدخل، فى حاجة لإصدارها مع "الثقافة" فى سلسلة "صحافتنا الأدبية"، وهو أمر ممكن إذا عرفنا أن السلسلة أصدرت من قبل المجموعات الكاملة لمجلات: أبوللو 1932-1934، الزهور 1910-1914، الكاتب المصري 1945-1948، مع تمنياتنا بالتوفيق للفريق القائم على الإصدار والنشر.

*** ***

التأريخ للأدب العربي القديم

يلعب تأريخ الأدب دوراً مهماً في الوساطة بين النص الأدبي ونقده، فضلاً عن الكشف عن حركة الأدب في علوها وهبوطها. لقد مرّ التاريخ الأدبي في العصر الحديث بمراحل عدة حتى استوت مناهجه التى نراها اليوم في دراساتنا وأبحاثنا، وهى مناهج عديدة تعددت مشاربها واتجاهاتها.

وقد قام الباحث "ياسر أحمد صفوت حشيش" بتقديم رسالة دكتوراه إلى كلية دار العلوم جامعة القاهرة، تحت إشراف الدكتور صلاح الدين رزق، والدكتور محمد مصطفى منصور، يتناول فيها التأريخ للأدب العربي القديم في المشرق في النصف الأول من القرن العشرين، أبرزت كثيراً من معالم الموضوع وملامحه، رصدت خريطة تطور فن التأريخ منذ ظهوره في العصر الحديث، وما تقلب عليه من أدوار على مدى نصف قرن.

لقد استعان البحث بعدة مناهج تفاعلت في إطار البحث أو توازت ليحقق هدفه المنشود، فالمنهج التاريخي الصارم الذي يعتمد على الإحصاء والتصنيف قد أتاح له أن يرصد بموضوعية التسلسل الحقيقي لمؤلفات التأريخ الأدبي على مدار خمسين عاما (فترة البحث)، وقد أعد الباحث إحصائيات ببلوجرافية مستخلصة من الببلوجرافيات السابقة، ومن فهارس وبطاقات المكتبات العديدة، وبخاصة مكتبة دار الكتب والوثائق المصرية، والمكتبة المركزية بجامعة القاهرة، ومكتبة كلية دار العلوم، لينتظم البحث في تسلسل تاريخي صحيح للمؤلفات.

كما استعان الباحث بالمنهج التحليلي في الإطار التاريخي، حتى يتسنى له أن يتتبع ظهور الأفكار والمناهج والرؤى لدى المؤلفين، فينبه بذلك على السبق والسابق والمسبوق، ويصحح العديد من الآراء الشائعة، ويذكر ما أغفله بعض المؤرخين سهواً أو عمداً لبعض الحقائق المهمة، كما حدث بالنسبة لحسن توفيق العدل، الذي

قيل إنه نقل كتاب "بـروكلمان" أو أفكـاره، وكانـت نتيجـة الفحـص وفقـاً لمـنهج الباحث غير ذلك، وهو ما حدث أيضا بالنسـبة لكتـاب "الرافعـي" الـذي تجاهلـه المؤرخون، أقصد "تاريخ آداب العرب".

ويشير الباحث إلى أنه استعان كذلك بإجراءات بعض المناهج الأخرى التـى من شأنها المساعدة على تفسير بعض الظواهر الحضارية أو الاجتماعية أو النفسية.

لقد جاءت الدراسة في أربعة فصول متسلسلة على الأدوار التى تقلب عليهـا التأريخ للأدب العربي في العصر الحديث، فالبداية تكشف عن جذورها هذا العلـم في أدبنا القديم، مما يدحض الآراء التى تتهم العرب بـأنهم لم يـدروا شـيئاً عـن هـذا العلم، أو أن مؤلفاتهم كانت متخلفة في هذا الجانب، أو أنهم عالة على المنهج الغربي الاستشراقى.. وقد استغرقت هذه البداية الفصل الأول الذي دار حـول "الجـذور التراثية في التأريخ الأدبي"، وتناول القيم الإسـلامية والـدفع الحضـاري، وعلاقـة الأدب بالعلوم الأخرى، وأهمية التراث التأريخى للأدب وقيمته. وقد لمس الباحث أن فجوة ما قد أصابت مسيرة هذا العلم عند العرب لعوامل عديـدة؛ عملـت عـلى غيابه فترة من الزمن عن الحياة العلمية.

وقد خصص الباحث الفصل الثاني من بحثه لتناول إرهاصات نشأة التـأريخ الأدبي في العصر الحديث من خلال مناقشة قضايا تاريخية وحضارية تعـددت الآراء والاتجاهات في فهممها ورصدها، مثل قضية العصور الوسطى،وعصـور الضـعف عند المسلمين، وأيضاً مناقشة نماذج الإرهاصات في التـأريخ الأدبي قبـل أن تتحـدد ملامحه.

وفى الفصل الثالث، يدور البحث حـول بـدايات التـأريخ الأدبي ونشـأته في العصر الحديث، مع نماذج توضح ملامح البدايات، ومعالم النشأة.

وفى الفصل الرابع، يرصد الباحث تطور التأريخ الأدبي في العصرالحديث من خلال التـأريخ للشخصـية الأدبيـة، والتـأريخ للقضـية الأدبيـة، والتـأريخ للنـوع

الأدبي،والتأريخ للطائفة الأدبية، والتأريخ لأدب الأقاليم، والتأريخ للمذاهب الأدبية، مع استكشاف تطور الأفكار والمناهج والرؤى التى تنوعت تنوعاً شديداً بتنوع ثقافات المؤلفين واتجاهاتهم.

ويتوصل الباحث في نهاية دراسته إلى العديد من النتائج والتوصيات، أهمها :

1- أنه تم تجريب العديد من المناهج فى غضون خمسين عاماً (فترة البحث)، فأثبت بعضها جدارته وقدرته على البقاء، وظهر فساد بعضها الآخر أو ضعفه، وهو ما يفرض على الباحثين الجادين ألا يبدءوا التجريب حتى يقفوا على نتاجات هذه المناهج فى الدراسات العلمية الموضوعية.

2- لابد من دراسة مادة مناهج البحث الأدبي في إطارها التطبيقي، بجانب الإطار النظري، وجعلها مقرراً من مقررات مرحلة الليسانس أو طلبة التمهيدي للماجستير في شعب الدراسات الأدبية والنقدية، وذلك من خلال بعض الأعمال الجيدة.

3- ينبغي أن تكون المناهج المقررة فى الدراسات الأدبية بأقسام اللغة العربية بجامعاتنا واضحة المعالم، ينبه عليها الأساتذة، ويوضحون أهميتها فى دراساتهم، حتى ينشأ ذهن الطالب مدرباً على المنهجية، وليبنى حياته العملية والعلمية على أساس سليم وصحيح.

يزود الباحث دراسته بملحق يتضمن ببلوجرافية التأريخ الأدبي العربي القديم على مدى خمسين عاماً تبدأ عام 1900 حتى 1950، فيها أكثر من ثلاثين ومائتي عنوان لكتب ورسائل، تناولت عصور الأدب أو الشخصيات الأدبية أو المضامين الأدبية أو الأنواع والطوائف والمذاهب والأقاليم الأدبية.

لقد بذل الباحث جهداً طيباً وملموساً فى بحثه، بما تضمنه من رصد متنوع لجوانب موضوعه، ومناقشته للعديد من الأفكار والآراء التى ينبغي تصحيحها ومراجعتها، حيث تكشفت له حقائق مغايرة ومختلفة عما هو سائد ورائج.

الناقد الأدبي : ظالما ومظلوما

ظهرت الصحف صباح انتصار نادي الزمالك المصري على نادي الرجاء المغربي في كأس أندية أفريقيا يوم السبت (14/ 12/ 2002)، ومن بين عناوينها البارزة عنوان يقول : مائة وخمسة آلاف دولار مكافأة لكل لاعب من لاعبي الزمالك، ثم إشارات فى ثنايا الموضوع الذي تناول الانتصار الرياضي الكبير (!!) عن الجوائز والامتيازات والعطايا الأخرى التي ستمنحها جهات رسمية وغير رسمية لهؤلاء اللاعبين المنتصرين!

سألت نفسي: هل يمكن لأشهر ناقد أدبي فى عالمنا العربي أن يجمع طوال عمره مثل هذا المبلغ الذي حصل عليه لاعب واحد من لاعبي الزمالك فى هذه المباراة؟

ولأن الإجابة بالنفي القاطع، فقد عجبت لهذه الضجة المستمرة فى حياتنا الأدبية منذ نصف قرن أو يزيد حول أزمة النقد الأدبي، وعدم قيام الناقد الأدبي بواجباته تجاه الأدباء المبدعين (صار من يكتب قصة قصيرة ضعيفة أو قصيدة فقيرة مفككة يسمى نفسه مبدعا!)، وتساءلت: إلى متى تستمر هذه الضجة؟ أو لماذا هذه الضجة أصلاً؟!

لا ريب أن دور النقد الأدبي مهم في تحريك الحياة الأدبية والثقافية إلى الأمام،وكلما ارتقى الأدب ووصل إلى قطاع عريض من الناس؛ ارتقت الأمة، وعلاقة الأدب بالأمة تتناسب طردياً فى معظم الأحوال. بيد أن العوامل والمؤثرات التى تحكم حركة المجتمعات قد تحتفي بالأدب حفاوة حقيقية جادة مثل اهتمامها بمجالات الحياة الأخرى- فترتقي الأمة، وقد تهمل شأنه كما تهمل شأن المجالات الأخرى فيتخلف، كما تتخلف هي الأخرى، وضمناً يتراجع دور النقد الأدبي والناقد الأدبي جميعاً..

واقعنا المعيش لا يهتم بالأدب والنقد اهتماماً حقيقياً جاداً، يعادل الاهتمام الذي كان سائداً فى النصف الأول من القرن العشرين، فصرخ من يريد الصراخ: هناك أزمة نقد ونقاد!

منطق الواقع المعيش الآن، يقول : إن القيم المادية إن صح التعبير تسبق القيم الأدبية بمراحل بعيدة. فلماذا العناء فى النقد الأدبي؟ الصحف تفرد صفحات وتخصص ملاحق، بل وجرائد ومجلات للحديث عن كرة القدم والرياضة عموماً،أن عائدها أكثر وتوزيعها أكبر وإعلاناتها أعظم، فى الوقت الذي ترفض فيه العديد من الصحف أن تنشر النقد الأدبي أو تخصص له مساحة ولو ضيقة، وإذا نشرته فإنها لا تكافئ الناقد، وإذا كافأته فهي المكافأة الزهيدة التى لا تكفى ثمن وجبة معقولة فى مطعم متوسط!

ثم إن الواقع الأدبي اليومي يختلف عن الواقع الأدبي قبل نصف قرن تقريباً. قطعان العاطلين فى العقدين الأخيرين، وخاصة من ذوى الثقافة المحدودة، اتجهت إلى الأدب بوصفه "صنعة من لا صنعة له"، ومع أن بعضهم لا يحسن القراءة أو الكتابة، فضلاً عن النحو والصرف والعروض والبلاغة، فقد وجدوا فى أنفسهم الجرأة لادعاء الإبداع وامتهان الأدب! وفى رغبة البعض فى التشيع والتخريب والاستقطاب، صار الانتماء إلى الجماعات "والشلل" الأدبية أمراً ميسوراً، المهم الولاء والمناصرة، أما القيمة الأدبية فأمرها موكول للدعاية، والشلة تستطيع أن تجعل البليد موهوباً، والدعي أصيلاً، والبهلوان مبدعاً.

وإلى جانب ذلك هناك ظاهرتان تتمثلان فى الناقد المأجور والإغراق الدعائي. فالناقد المأجور محله المختار، قهوة النشاط أي قهوة والمؤتمرات والندوات. يلتقط هؤلاء الساعين إلى الشهرة من الشبان أو غيرهم ليكتب عنهم نظير مقابل منظور أو غير منظور، وفى حالة عدم الوفاء بهذا المقابل فإن الهجوم البذيء والضاري هو جزاء (الخيانة!)- أما الإغراق الدعائي فيتمثل في التركيز على

كاتب أو كتاب معين، وخاصة إذا كان صاحبه مشهوراً، يبدأ أحدهم بالنقد (وهو فى الحقيقة تقريظ يتغاضى عن العورات والسلبيات) فيدخل الجميع إلى ساحة الذكر أقصد النقد أو التقريظ- ويتطوحون فى حلقة الدروشة حتى تنقطع أنفاسهم لهاثاً وهتافاً!

هذه أبرز ملامح الواقع الأدبي أو النقدي الراهن في مجال الصحافة والندوات والمؤتمرات، وهى ملامح كما رأينا يغلب عليها التشوه والتعصب والانحياز، ولا تصنع أدباً حقيقياً يصب فى خانة التراث القومي. ولكن هذه الملامح تتلاشى بقدر ما، إذا تقدمنا نحو الجامعات والنقاد القلائل الجادين. فالعمل النقدي هنا يأخذ طابعاً علمياً هادئاً تحكمه قيم بحثية وتقاليد أكاديمية، لا تؤثر فيها كثيراً عمليات الإرهاب التى يمارسها أدباء الشلل والجماعات، ولا تحولها كثيراً رغبات الهوى ومزاج الأشخاص- أي أشخاص. هناك بالطبع مساحة للخلل، وللمجاملات،ولكنها محدودة بالقياس إلى ما يجرى فى الصحافة والندوات والمؤتمرات.. لذا كان قرار بعض الكليات بعدم تناول الإنتاج الأدبي للأحياء من الأدباء والشعراء والكتاب علاجاً قاسياً لثغرة فيها بعض المجاملات أو الخلل، وللأسف، فإن هذا القرار لا يطبق فى الجامعات المصرية جميعاً، وهو ما نطالب بتحقيقه مع قسوته وتطرفه!

هناك جانب يتعلق ببعض الأدباء والشعراء الذين لا يتقبلون النقد الجاد، ويتصورون أن كل تناول لإنتاجهم يجب أن يتوقف أمامه الناقد بالإشادة والتقريظ والتعظيم، أما إذا تجاوز ذلك إلى ذكر نقاط الضعف والهشاشة والأخطاء، فالويل للنقد والنقاد، وإذا عرفنا أن بعض المنتجين للأدب نرجسيون ويعيشون تضخم الذات؛ فالويل كل الويل لمن يقترب منهم بكلمة أو إشارة، ولذا يفضل الجادون من النقاد الابتعاد عن النقد برمته، وكم شهدت دار الأدباء بالقصر العيني وغيرها

معارك واشتباكات بالأيدي بين النقاد وأصحاب الأعمال الأدبية، لأن هؤلاء لم تعجبهم آراء أولئك!

النقد الأدبي ظالم حين يتخلى عن رسالته، أو يقول ما يخالف ضميره، وهو مظلوم حين يتفرغ لهذه المهنة ولا يجد مقابلاً معقولاً، والحل فى تغيير المعادلة الاجتماعية والاقتصادية.

*** ***

انتهاء الحداثة وتجليات العولمة!

من المؤكد أن قصة الحداثة، وما بعد الحداثة في العالم الغربي الاستعماري،قد انتهت إلى سياق جديد، انبعثت فيه النزعة الصليبية الاستعمارية القديمة سافرة ومتوحشة، ليس لاحتلال العالم العربي الإسلامي فحسب، بل لاحتلال العالم كله والهيمنة عليه وبسط نفوذ الثقافة الغربية المادية على المخ العالمي بعد غسله من ثقافاته المحلية والقومية.

ومن حق الغرب الاستعماري أن يفكر بالطريقة التى يريد، ويسعى إلى الهيمنة كيفما يشاء، فهو يملك القوة والإرادة على العمل والتنفيذ.. لكن ليس من حق الآخرين ومنهم العرب والمسلمون أن يستسلموا لهذه الإرادة وتلك القوة إذا كانوا حقا يريدون أن يعيشوا مستقلين كرماء على أنفسهم وعلى غيرهم. والاستسلام عادة يبدأ بالفكر والثقافة وتقبل ما يصدر عن الآخر، تلك أخطر المراحل على استقلال الأمم والشعوب، حيث تصبح القابلية للهزيمة أمراً محتوماً لا مرد له!

الحداثة بمفهومها الغربي هي القطيعة مع الماضي بكل ما فيه من دين وتراث وتاريخ وعادات وتقاليد، وكان الغرب في أخذه بالحداثة منطلقاً من ظروف موضوعية حتمت عليه أن ينحى المسيحية جانباً، وأن يعزل الكنيسة عن حركة المجتمع، وأن يرفع إصر الظلم الكنسي- والظلام الكهنوتي عن كاهل الشعوب الغربية لتتمكن هذه الشعوب من البحث والمعرفة وبناء القوة... وكانت بداية الحداثة مرتبطة باختراع الآلة والبارود، وهو ما مكن أوربة من الحركة في اتجاه إفريقية وآسيا والأمريكتين استعماراً واسترقاقاً ونهباً للموارد والثروات المعدنية والزراعية، وأنشأ الترف الاقتصادي والفكري فيما بعد ما سمى نظريات ما بعد الحداثة التى أسقطت سلطة المرجعيات كافة: دينية واجتماعية وثقافية، وجعلت من الإنسان الأوربي (ومعه الأميركي بالضرورة) محور الكون ومرجعية العمل، أيا كان هذا العمل.

إذاً حركة الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب الاستعماري تتسق مع ظروفه وإمكاناته وأفكاره ؛ حتى لو كانت شراً بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين. ومن المفارقات أن هذه الحركة تحولت في السنوات الأخيرة إلى ما يعرف "بالعولمة" أوالقرية العالمية الواحدة التى يحكمها الغرب الاستعماري ويهيمن عليها بمخترعاته ودعاياته وأفكاره وأمواله... وأخيراً قواته المسلحة المدججة بأحدث ما وصلت إليه الترسانة العسكرية.

ومن الملاحظ أن حركة العولمة قامت على أكتاف الصليبيين الجدد (يسمونهم المحافظين الجدد) وهم نمط من المتدينين المسيحيين الموالين للصهيونية الذين يفسرون المسيحية وفق هواهم الذي تسنده الأساطير والخرافات اليهودية حول عودة المسيح وأرض الميعاد والهيمنة على العالم. وكان احتلال أفغانستان ثم العراق، سحق الفلسطينيين عسكريا وسياسياً، وبث الرعب في العواصم العربية والإسلامية من خلال التهديد المباشر بالاحتلال أو الحصار أو العقوبات، أبرز تجليات العولمة أو الصليبية الاستعمارية الجديدة.

الحداثة كما نرى كانت بداية حركة استعمارية وسياسية، تهدف إلى تدجين العالم الإسلامي وتطويعه للإرادة الاستعمارية الصليبية، وقد حققت نجاحات كبيرة بلا ريب، وانتصارات عديدة مزقت الإرادة الإسلامية، وكونت نخباً ثقافية في العالم الإسلامي تماهت مع الثقافة الاستعمارية، وصارت من دعاتها، وعوناً على محاربة الثقافة الإسلامية ودعاتها.

ولاشك أن حكاية الحداثة في بلادنا العربية كانت سرداً لخديعة استعمارية ذكية (راجع: الحرب الباردة الثقافية أو من يدفع للزمار؟المجلس الأعلى للثقافة بمصر ـ 2002م)، فقد ظهرت أو ظهر الحديث عنها في إطار ما يسمى "التجديد"،والتجديد أمر مطلوب بلا ريب، لأن الحياة لا تتوقف على نمط ثابت، وكذلك الآداب والفنون والعلوم. مراوغة المصطلح خدعت كثيراً من الناس

البسطاء الطيبين الذين يتوقون إلى التجديد، وتغيير الواقع الجامد المتهرئ الصدئ، ولكنهم لم يدركوا أن المقصود بالحداثة شيء آخر تماما؛ هو القطيعة مع الماضي بكل ما فيه؛ وخاصة الدين، أي الإسلام. ويلاحظ أن من رفعوا لواء الحداثة في بلادنا العربية كانوا من المنتمين إلى طوائف غير إسلامية أو فرق غالية، خارجة عن دائرة الإسلام عملياً، وكان هدفهم الأساسي هو نزع الثوابت الإسلامية والتشكيك فيها، ووصل الأمر ببعضهم إلى القول: لا توجد ثوابت في الإسلام! وكان من أبرز النماذج التى امتدحوها في الإسلام حركة القرامطة وثورة الزنج وهرطقيات الزنادقة والملاحدة والتصوف المنحرف!

بعضهم حصر الحداثة في المجال الأدبي بمعزل عن المجال السياسي والحضاري ، وأقام على ذلك مشروعاً أدبياً قاصراً يتبنى معطيات المدارس التى أفرزتها الحداثة وما بعدها مثل البنيوية والشكلانية والتفكيك والظاهراتية والنسوية والنقد الثقافي مروراً بمدرسة براغ وغيرها. ومعظم هذه المدارس يتبنى مفهوماً يلغى المرجعية بالنسبة للنص الأدبي، بل يلغى سلطة النص أساساً على النحو الذي فصله "عبد العزيز حمودة" في أحدث كتبه (الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص- عالم المعرفة- الكويت- نوفمبر 2003م).

ويبدو "النقد الثقافي" الذي يروج له البعض الآن، محاولة لاستعادة المرجعية على أساس اجتماعي (ماركسي)، وهذا الأساس كما نرى بعيد عن روح المجتمع العربي الإسلامي، فضلاً عن سقوط الماركسية عملياً أو تطبيقياً بسقوط الاتحاد السوفياتى الذي كان يمثل النموذج الماركسي الأعلى في العالم!

الحداثة وما بعدها تعبير عن حركة مجتمع قوى ومتفوق، يختلف في طبيعته ومفاهيمه وقيمه عن المجتمع العربي الإسلامي، ولا أظنها تنسجم مع واقعنا العربي الإسلامي أو تتناغم معه، لأن العرب والمسلمين ليسوا على استعداد للقطيعة مع الإسلام أو التراث أو التاريخ أو العادات أو التقاليد.

وإذا كان بعض الطيبين السذج يصرون على إقناعنا بقبول الحداثة ومعطياتها في المجال الأدبي، انطلاقاً من مفهوم "التجديد" أو ما يسميه بعضهم "بالتجديد الواعي"، فإن التجديد لا يلزمنا بالضرورة أن نعده حداثة أو نضع لافتة "الحداثة" على إنشائنا الأدبي، لأن هذه اللافتة بمضمونها الحقيقي لا تعنى "التجديد" وحده، ولكنها تعنى أيضاً "التدمير" و "الإزالة" و"المحو" وكلها معانٍ غير مقبولة إسلامياً وعربياً، فلسنا على استعداد لتدمير أو إزالة أو محو ممتلكاتنا التاريخية المضيئة مهما كانت مغريات المصطلح وإيحاءاته.

لقد نشطت الدعوة إلى الحداثة منذ عدة عقود في المجال الأدبي، ونشر إنتاج كثير في الشعر والنثر والنقد، تم الترويج له بآلات الدعاية الضاربة التى تملكها الدول العربية من صحف وإذاعة وتلفزة ومؤسسات نشر وتثقيف، ومؤتمرات وندوات، ولكن الحصاد كان خرط القتاد، فقد وضح أن الجماهير العربية لم تتجاوب مع الإنتاج الحداثى في المجال الأدبي، ولم تتفاعل معه، لسبب بسيط، وهو استغلاقه وغموضه، وخوضه في قضايا هامشية أو قضايا معاكسة لآمال الأمة مثل التجديف والجنس والتبعية للغرب الاستعماري في قيمه وعاداته وتقاليده، فضلاً عن رفض الإسلام وتشويهه والسخرية منه.

ويلاحظ أن الترويج لفكرة الحداثة بمفهومها الغربي طبعا كان يتم في بعض البلاد العربية بدعم من حكوماتها لاستئصال المفاهيم الإسلامية وتكريس مفاهيم التبعية للغرب الإسلامي، ولكن الجماهير العربية المسلمة أصدرت حكمها الذي لا يستطيع أحد أن ينقضه أو يهرب منه، وهو رفض "الحداثة" وما بعد الحداثة، والعولمة أيضاً.

والطريف في الأمر، أن فكرة الحداثة نفسها، لم تعد متداولة الآن في أوروبا وأميركا، وما بعد الحداثة أيضاً ينطبق عليه ما ينطبق على الحداثة.. لم يعد القوم هنالك يتكلمون عن الحداثة أو ما بعد الحداثة، لأن هذه وتلك من المراحل التى

انتهت هناك، والقوم مشغولون الآن بمرحلة العولمة التى تعنى انبعاث الصليبية الاستعمارية الجديدة، بشكل قوى وبشع ومدمر، ولم يكن غريباً أن يتولى الحكم في معظم البلاد الأوربية وأميركا محافظون يمينيون جدد، يتبنون شعارات الهيمنة وإذلال المسلمين قبل أي جماعة أخرى في العالم.

إن الحرص على الهوية والثقافة القومية، فضلاً عن الدين، يفرض على الأدباء والمفكرين المسلمين أن يمتلكوا القدرة على الفرز والتصنيف والاختيار،أبسط الأشياء وأخطرها، في مصطلح الفكرة ومضمونها، وليس هناك من يرغمنا على التمسك بمصطلحات لا تتفق مع طبيعتنا، أو يصر على استزراعها في تربة فكرنا وثقافتنا، ما دمنا نملك القدرة على الفرز والتصنيف والاختيار!

ومن المؤكد أن "الحداثة" مصطلحا أو مفهوما ليست قدراً مكتوباً ينبغي التسليم به والخضوع له، فالأمة الآن تحتاج إلى فكر متجدد، يفتش عن قيمها المضيئة ومثلها العليا، ويبعثها من جديد لتبث الحياة في روح الأجيال الجديدة، لتعمل وتتعلم وتتثقف وتتحرك في اتجاه البناء والتعمير، وإقامة مشروع حضاري إسلامي متميز، يملك القدرة على المبادرة والفعل، و"تجسير" الفجوة الاقتصادية والحضارية بيننا وبين خصومنا، والإسهام في مجالات العلوم والمعرفة والثقافة، على المستوى القومي والعالمي.

وإذا كان من يعنيهم أمر الحداثة وما بعدها، قد كفوا عن الحديث عنها، فأولى بنا أن نستعيد زمام المبادرة لنجدد واقعنا ونبنى مستقبلنا وفق ظروفنا نحن، وليس بناءً على إرادة الآخرين، وليت الحداثيين العرب أقصد الطيبين منهم يراجعون أنفسهم في ظل "العولمة" وتجلياتها المؤذية.

*** ***

كتب للمؤلف

أولا- كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

1- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته، 1427هـ = 2006م.

2- تيسير علم المعاني، 1427 هـ = 2006 م .

3- الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، 1428هـ = 2007م .

4- محمد- صلى الله عليه وسلم- في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)،1429هـ = 2009م ..الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة (مصر)، 1408هـ = 1987م .

5- المدخل إلى البلاغة القرآنية، 1428 هـ = 2007 م .

6- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)،1430 هـ = 2009 م .

7 - تطور النثر العربي في العصر الحديث، 1429 هـ = 2008م .

8- تطور الشعر العربي في العصر الحديث، 1431هـ = 2010م .

9- المدخل إلى البلاغة النبوية،1432هـ = 2011م .

10- الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق، 1436 هـ = 2015م.

ثانيا- سرديات:

سرديات أخرى للمؤلف:

1- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية، القاهرة، 1974م.

2- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، القاهرة، 1976م .

3- زمن البراءة : النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية)

4- زمن الهزيمة : النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)

5- زمن الغربة: النيل لا طعم له، (الجزء الثالث من السيرة الذاتية).

6- شغفها حبا، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة 1440هـ= 2019م.

7- محضر غش، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1440هـ= 2019م.

8- شكوى مجهولة، (رواية). مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1441هـ= 2020م.

9- منامات الشيخوخة، (قصص). اتحاد الكتاب، القاهرة، 1441هـ= 2020م.

10- الرجل الأناني(رواية). مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1441 هـ= 2020م.

11- اللحية التايواني(رواية). النابغة للنشر والتوزيع، طنطا(مصر)،1441 هـ= 2020م.

12- الشمس الحارقة (رواية).البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 1442هـ= 2021م.

13- مكر الليل والنهار (رواية). العلم والإيمان، (دسوق- كفر الشيخ)، 1442ه = 2021م.

14- مالك الملك (رواية). العلم والإيمان ، (دسوق- كفرالشيخ)،1442هـ= 2021م.

15- تغريبة معروف الإسكافي (رواية).

16- مجلة الأنس! (رواية).

ثالثا- كتب أدبية ونقدية :

1- الغروب المستحيل (سيرة كاتب)، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، د . ت .

2 - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة رابعة)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1440هـ= 2019م. الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، د . ت .

3 – حوار مع الرواية في مصر وسورية، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1999م .

4 – الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، 1427هـ =2007م .

5 – إنسانية الأدب الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار(مصر)، 2008م .

6 – حصيرة الريف الواسعة، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، 2008م .

7 – أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، سلسلة روافد، الكويت، 1430 هـ = 2009 م .

8 – الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية)، دار حضر موت، المكلا (اليمن)، 2011 م .

9 – الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام، القاهرة، 1418هـ = 1998م .

10– بالاشتراك مع آخرين، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، تحرير وإشراف أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 2012 م .

11– بالاشتراك مع آخرين، أمل دنقل عابرا للأجيال، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013 م .

12– مطولة على أحمد با كثير، مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية)، د. ت.

13 – مدرسة البيان في النثر الحديث، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2018م.

14– لويس عوض : الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام ، القاهرة، 1414 هـ = 1994م

15– نحو رواية إسلامية ، ملحق المجلة العربية (29)، الرياض ، 1420هـ = 1999م .

16– الزاهد أنور الجندي: حياته. أدبه. فكره، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 1437 هـ = 2016م .

17– المآذن العالية: رجال من ذهب، دار المقاصد للتوزيع والنشر، القاهرة، 1438هـ = 2017 م .

18- حكايات الجواري والعبيد (الرواية المضادة)، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 140هـ= 2019م.

19- أعلام في الظل، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 1441هـ= 2020م.

20 – عبد القادر القط: شيخ النقاد وكروان الشعر، (بالاشتراك)، إعداد وتقديم: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2020م.

رابعا- إعلام :

1- الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية، ط2، دار الاعتصام، القاهرة، 1423 هـ = 1992م.

خامساً- كتب الأطفال :

1- واحد من سبعة ،هيئة قصور الثقافة ، سلسلة كتاب قطر الندى – العدد 164، القاهرة ، د . ت .

سادسا- كتب محققة:

1- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية، دار الفضيلة، القاهرة ، 2010م.

2- طائفة من المؤلفين، أحسن ما كتبت، دار الفضيلة، القاهرة، 2010م.

3- المتنبي، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) .

4- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي(تحت الطبع).

***